١٧

مهيار الديلمي

محمد علي موسى

أعلام الفكر العربي

١٧

مهيار الديلمي

محمد علي موسى

مهيار الديلمي

منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

الطبعة الاولى
حزيران (يونيه) ١٩٦١

مقدمة

لقد قُيّضَ لبعضنا أن يستمع الى المغني المعروف محمد عبد الوهاب وهو يترنم بغناء قصيدة مطلعها :

اعجبت بي بين نادي قومها   (ذات حسن ١) فمضت تسأل بي

وقليلون هم الذين توقفوا عند اسم صاحبها ، وإني لأعذر الذين اعرضوا عن اسمه ، فالرجل غير معروف في عالم الشعر المتداول في أيامنا ، ولم يؤثر عنه ما يجعل له شهرة كشهرة المتنبي أو أبي تمام أو البحتري او ابن الرومي وسواهم من كبار الشعراء العرب . ولم يكن الاهمال نصيب هذا الرجل في عصرنا وحسب بل إن معاصريه ومؤرخي الأدب قد أهملوه بدورهم أيضاً. هذا الشاعر هو مهيار الديلمي ، شاعر العصر البويهي الأوحد . ولم يعن الناس لا قديماً ولا حديثاً بشعره على وفرته وجودته في بعض الاحيان ، الى أن اخرجت دار الكتب المصرية ديوانه مطبوعاً عام ١٩٣٠ ، فكشف الستارُ بعض الشيء عن مكنونه ، وكانت

---

١ - الصواب : أم سعد هكذا اوردت في الديوان ، ج ١ ، ص : ٦٤

محاولات في دراسة شعره، أجدرها بالإهتمام محاولة علي علي الفلال في كتابه : مهيار الديلمي وشعره ، الذي أصدره عام ١٩٤٨ . وقد شئت أن أسهم في بعث هذا الرجل وشره فاتخذت من دراسة شعره موضوعاً للرسالة التي تقدمت بها الى الجامعة عـام ١٩٥٧ لنيل الاجازة في اللغة العربية وآدابها .

وقد وقفت دراستي يومذاك على شعوبية مهيار وتشيعه ، إلى أن وقع عليها بعض الأصدقاء ، فطلب إليّ أن أكمل الصورة التي رسمتها للشاعر الديلمي ، فعكفت على تلك النواة ، وأعـدت النظر فيها فنقحتها حيث يحب التنقيح وأضفت إليهـا بعض الأبواب الهامة التي عالجها مهيار في شعره ، وأحطت إحاطـة سريعة بحياة الشاعر وبعصره كما أنني أشرت الى جمع الديوان وطبعه وتحقيقه وتبويبه . اصطلعت بهذا كله راجياً أن أجلو اللبس والابهام ما أمكن عن شخصية من أطرف الشخصيات في تاريخ الأدب العربي . ولقد حرصت على الإكثـار من ايراد النصوص ، على اكفي القارىء مؤونة الجهـد من الرجوع الى الديوان ، وهو بحر خضم تقتضي مطالعته الساعات إثر الساعات. ولكن على الرغم من هذا كله . لا يسعني الا أن انصح القـارىء بالعوده الى الديوان اذا أراد ان يكون للشـاعر الديلمي صوره بينة الملامح ، جليه الخطوط. وأرجو أخيرا أن أكون قد وفقت فيما رميت اليه .

عانوت في أول حزيران ١٩٦١ — محمد علي موسى

عصـــره

١ ـ الحالة السياسية

مهيار فارسي الأصل ولكنه لم يعش في بلاد فارس ، بل اتخذ بغداد مقاماً ، وبغداد يومئذٍ خاضعة للنفوذ البويهي الذي امتد من سنة ٣٣٤ هـ إلى سنة ٤٤٧ هـ أي الى أن استأثر السلجوقيون بالسلطة [1] . ولقد سلخ مهيار عهد شبابه في نهاية القرن الرابع الهجري ، وأمضى عهد كهولته في مطلع القرن الخامس (ولد الشاعر على الأرجح عام ٣٦٧ هـ وتوفي عام ٤٢٨ هـ) وقد عايش ثلاثة من الخلفاء هم : الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن المطيع ، وقد تولى الخلافة من ٣٦٣ الى ٣٨١ [2] . والقادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر وقد بويع بالخلافة بعد خلع الطائع سنة ٣٨١ [3] وامتدت خلافته إلى سنة ٤٢٢ ، وقد توفي فيها . وخلف القادر القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر ،

---

١ ـ حسن إبراهيم حسن ، المصر الإسلامية ، ص ١٣

٢ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٥

٣ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٣ ، ٢١٥

وامتدت خلافته من سنة ٤٢٢ الى سنة ٤٦٧ [١] وفي عهده توفي مهيار عام ٤٢٨ [٢] . هؤلاء الخلفاء الثلاثة هم الذين عاصرهم مهيار ، ولكن السلطة الفعلية لم تكن في أيديهم كما يتضح من أكثر كتب التاريخ (كالكامل لابن الاثير ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي) وإنما كانت في يد البويهيين ، وكانوا قد تولوا إمرة الأمراء ، ثم أصبحوا يتلقبون فيما بعد بالملوك والسلاطين . وقد عاصر مهيار ستة سلاطين منهم هم : عضد الدولة وقد ولي السلطة في السنة التي ولد فيها مهيار أي عام ٣٦٧ هـ [٣] وظل قائماً في الحكم إلى ان توفي عام ٣٧٢ هـ [٤] فخلفه ابنه شرف الدولة الذي حكم إلى السنة ٣٧٩ . وبعد وفاة شرف الدولة تولى الاحكام أخوه بهاء الدولة الذي ظل في الحكم من السنة ٣٧٩ هـ الى السنة ٤٠٣ هـ . وبعد وفاة بهاء الدولة تولى الاحكام ابناؤه سلطان الدولة (٤٠٣ — ٤١١) ومشرف الدولة (٤١١ — ٤١٦) ثم جلال الدولة (٤١٨ — ٤٣٥) وهو الملك البويهي الوحيد الذي حظي بمدائح مهيار [٥] ، وفي عهده توفي مهيار سنة ٤٢٨ هـ .

في هذا العصر الذي ضعفت فيه سلطة الخلفاء حتى انهم أصبحوا تحت رحمة الملك البويهي ، عاش مهيار . وقد كان من الطبيعي أن يشهد المآسي التي تمثل في دور الخلفاء ، وكيف كان

---

١ — السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٦

٢ — السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٩

٣ — حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص : ٨٤

٤ — ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص : ٨

٥ — الفلال : ص : ١٤

البويهيون يتجرأون على الخليفة ولا يحجمون عن قتله والتمثيل به كما حصل للمستكفي بالله أبي القاسم بن المعتضد الذي جذبه جنود الديلم عن سريره بأمر من معز الدولة وطرحوه أرضاً وجرّوه من عمامته ثم نهبوا قصوره وساقوه إلى قصر معز الدولة حيث سملت عيناه وسجن الى أن مات [1] . هذا الحادث لم يكن وقفاً على المستكفي وحسب ، بل كثيراً ما تكرر ، حتى أن الخلافة أصبحت إسماً لغير مسمى . ويجب ألا يغرب عن بالنا أن البويهيين ديالمة قبل كل شيء ، يشتركون ومهيار في وحدة العنصر وقد تولى بنو بويه السلطة في بغداد بقوة السيف بعد أن قوي نفوذهم ، وضموا إليهم القبائل القاطنة في القسم الشمالي من بلاد فارس . وقد كانت فترة نفوذهم مشوبة بالمنازعات فيما بينهم . فمن خلاف بين فخر الدولة وأخيه عضد الدولة إلى خصام بين تاج الدولة وشرف الدولة الى نزاع بين شرف الدولة وصمصام الدولة [2] ولم يقتصر هذا النزاع على السلاطين وحسب بسبب جشعهم وطمعهم في الاستئثار بالسلطة ، بل تعدى ذلك الى صفات الشعب أيضاً ، وقامت المشاحنات المذهبية على اختلافها كما سنرى .

لقد طغت العجمة إذن في هذا العصر واصبح لها اليد الطولى في الأحكام ، ولم يبق للعرب إلا لغتهم ينافسهم الأعاجم في آدابها أيضاً . وتفسر هذه الظاهرة في ان الخلافة العباسية بعد

---

١ — السيوطي : ص : ٢٦٤

٢ — ابن الاثير : ج : ٩ ، ص : ١٨

لأن ارتكزت في قيامها على سواعد الأعاجم ولا سيا الفرس ، كان لا بد لها من النظر الى هؤلاء بعين العطف فباتوا ولهم دالة ، بل جرأة على الخلافة والخلفاء . ولقد منعوا زمناً من التمادي في جرأتهم تلك ، ذلك يوم كانت الخلافة العباسية في إبان فتوتها ، على عهد السفاح والمنصور وهرون الرشيد . وحكاية فتك المنصور بأبي مسلم الخراساني مشهورة ، ونكبة البرامكة على يد الرشيد أشهر من أن يشار اليها . وقد كان شعار الخلفاء يومذاك: « ان من نازعنا عروة ذلك القميص أجزرناه خبيء هذا الغمد » . وهكذا فت في عضد الطامعين وأقعدوا عن قصدهم . لكن إدلال الفرس بدأ بالظهور جلياً على أثر الفتنة المشهورة بين الأمين والمأمون ، إذ أن المأمون اعتمد على سواعد الفرس في توطيد دعائم ملكه . وفي عهد المعتصم وفي عهد المتوكل من بعده أصبح للفرس وللأتراك اليد الطولى في تصريف الأمور لأن الخلفاء اعتمدوا عليهم في الادارة ، وفي المحافظة على سلامتهم ، فاستطالوا وبغوا فيما بعد [1] . وأكثر ما يتجلى نفوذ هؤلاء الأعاجم في القرنين الرابع والخامس ، وهما القرنان اللذان حضر مهيار احتضار احدهما وولادة الآخر . وكان الأمر يومذاك لبني بويه كما رأينا وقد « كانوا يلقبون بالالقاب الفضفاضة كجلال الدولة وبهاء الدولة ، وعز الدولة والحقيقة انهم كانوا شقاء الدولة وبؤس الدولة وفقر الدولة » [2] ذلك أنهم كانوا يستأثرون بخيرات

---

١ — بروكلمن : تاريخ الشعوب الاسلامية : ج : ٢ ص : ٤٦ — ٥٣

٢ — عبد الوهاب خلاف : مقدمة مهيار للفلال ص : و

الدولة كي يصرفوها على ملذاتهم واهوائهم ، وعلى صنائعهم في سبيل كسب ودهم يضاف الى هذا الاضطراب السياسي ان الخلافة كانت مفككة الأوصال ، وكانت الأمارات قد انتشرت في مشارق الامبراطورية العربية ومغاربها : فمن الحمدانيين الى الأخشيديين الى الطولونيين الى الفاطميين الى البويهيين ... وسواهم . إمارات كانت كالسوس ينخر في جسم الخلافة ويسير بها نحو الزوال والإضمحلال . [1]

٢ - الحالة الاجتماعية

هذا ما كانت عليه الحالة السياسية من اضطراب اما الحالة الاجتماعية فلم تكن اكثر استقراراً وهدوءاً ، ذلك أن المشاحنات والمنازعات الطائفية والعصبية كانت قائمة على قدم وساق . فالمناظرات تدور رحاها بين السنة والشيعة وكثيراً ما كانت تؤول الى نتائج وخيمة العاقبة لا تقتصر على العزل والطرد من الوظائف وحسب بل تتعدى ذلك الى اراقة الدماء ، وكثيراً ما كان الخلفاء يميلون الى هذا المذهب او ذاك . ويذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء ، عند الحديث عن المتوكل انه « اظهر الميل الى السنة ونصر اهلها ، ورفع المحنة وكتب بذلك الى الآفاق » [2] وقد تحدث الناس بذلك حتى قالوا : « الخلفاء ثلاثة : ابو بكر

---

١ - بروكلمن : تاريخ الشعوب الاسلامية : ج : ٢ ، ص : ٥٠ ،
الفلال : ص : ٨-١٣

٢ - السيوطي : ص : ٢٣٠

الصديق رضي الله عنه في قتل أهل الردة . وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم والمتوكل في احياء السنة »[1] وبلغ من اعتزاز السنة ان قال شاعرهم : ابو بكر بن الخبازة :

وبعد فإن السُّنة اليوم اصبحت معززةً حتى كأن لم تذلل[2]
تصولُ وتسطو اذ أقيم منارُها
وحطَّ منار الإفك والزور من علَ

ولم يقتصر الامر على هذا وحسب بل إنه امر بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من الدور[3] . ولم يكن عصر المتوكل بعيداً كل البعد عن عصر مهيار فاستمرت هذه العادة ، عادة الاضطهاد المذهبي ، وخاض مهيار غمارها كما سنرى ذلك مفصلاً في باب مهيار شاعر الشيعة .

وهناك ظاهرة لا بد من الاشارة اليها ، هي ان البويهيين رغم ادعائهم أحقية بني علي في الخلافة فإنهم لم يساعدوا ابناء طائفتهم على استرجاع حقهم السليب ، وكانت حجتهم في ذلك ان زمام الامور يفلت ساعتئذٍ من ايديهم ، وتجب عليهم طاعة الخليفة العلوي والإمتثال لأمره . وهكذا فإنهم كانوا يجيبون كلما سئلوا عن عدم تسليمهم الخلافة لابناء علي بعد ان اصبحوا هم الآمرين والناهين : « استبدل خليفة يطيعنا بآخر تجب علينا طاعته . ويذكر ابن الاثير[4] أن معز الدولة عندما فكر في تنفيذ فكرة

١ ـ السيوطي ص : ٢٣٠
٢ ـ السيوطي : ص : ٢٣٠
٣ ـ المرجع نفسه
٤ ـ الكامل : ج ٨ ، ص : ١٦٢

إقامة خلافة علوية في بغداد على انقاض الخلافة العباسية ، أشار عليه احد أنصاره بالعدول عنها وقال له : « إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت واصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت واصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه . »

ومهما يكن من أمر فإن في هذا دلالة على اصطراع العاطفة المذهبية في نفوس الذين يتولون السلطة والإيقاع بمن لا يشاركهم في مذهبهم . ولم تقتصر هذه المنازعات على الناحية الدينية وحسب بل تعدتها إلى الناحية العنصرية أيضاً . وهكذا فقد كان هذا العصر مسرحاً لمنازعات حامية بين الفرس والعرب ، وسنرى تفصيل ذلك في الكلام على « مهيار شاعر الشعوبية » .

٣ ـ الحالة الادبية .

في هذا الوسط الموبوء ، وفي هذا الخضم من الفوضى والاضطراب وضعف السلطة كان قبس ينير الظلمات ويكشف الغياهب ، ذلك القبس هو قبس الفكر وأصحابه . وقد يعجب المرء لهذه الظاهرة ولكن سرعان ما يزول العجب اذا ما علمنا أن آداب أمم أخرى قد أزدهرت في فترات الاضطراب السياسي أيضاً ، كما كانت تزدهر بعض الأحيان في إبان قوة الدولة وانتظام أحوالها السياسية . وهكذا فإننا نرى أن آداب الإغريق الهامة ظهرت في فترات ضعف الحكم وفي فترات الفوضى

السياسية ، كذلك القول في ادب اللاتين والفرنسيين من بعد [1]
وغير عجيب إذن ان نرى مثل هذه الظاهرة في الآداب العربية.
وهكذا فإننا نرى أن هذه الفترة كانت من أخصب الحقب في
الإنتاج الادبي في تاريخ العرب . ففي هـــذا العصر « ظهرت
فلسفة إخوان الصفا في البصرة وبغداد ونبغ الشيخ الرئيس ابن
سينا ... والمتنبي والصابي [2] والشريف الرضي وابن نباتــة
ومهيار الديلمي . »

ولعل السبب في ذلك يعود الى ان النفوس النيّرة تنعكس على
ذاتها في مثل هذه الفترات من البؤس والشقاء وتخرج تأملاتهــا
شعراً ونثراً . وهل أخصب من الكوارث والفواجع والمآسي
للموضوعات الادبية ؟ وهل أوفق منها لاذكاء الشعور المكبوت:
شعور الالم والحزن ؟ كما انه في مثل هذه الفترات تضعف النفوس
وتهون وتتنزل عن كبريائها وانفتها وتلجأ الى الزلفى والتقرب ،
وهذا ما يلجأ اليه الشعراء اكثر من سواهم ، فيتقربون الى أولي
الامر ليحصلوا على رفدهم وسني جوائزهم . كما ان الامراء أنفسهم
كانوا يتنافسون في المضمار الأدبي بالاضافة إلى منافساتهم السياسية
وكانوا يسعون جاهدين في كسب ود الكتاب والشعراء كي ينزلوا
في قصورهم على الرحب والسعة معززين مكرمين ، لينشروا مآثر هذا
الامير أو هذا الملك ، وعلى هذا فإننا كنا نرى البــلاط البويهي

---

١ ـ علي أدهم : علا هامش الادب والنقد ص : ٩

٢ ـ بطرس البستاني : أدباء العرب في الأعصر العباسية ص : ٢٤٣

يحفل بالنخبة الخيرة من الشعراء والكتاب يومذاك ، وهؤلاء يمدحون الملك وينالون حوائزه . هذا شأن المتنبي مثلاً الذى مدح عضد الدولة ، وشأن الشريف الرضى الذى مدح بهـــاء الدولة وشأن مهيار الذي مدح جلال الدولة ، وكثيرا ما كان الامراء البويهيون انفسهم ينصرفون الى معالجـــة القريض ونظم الشعر مجاراة لسواهم من الامراء كما كان يفعل سيف الدولة الحمـــداني مثلاً . وعلى هذا فقد كان احدهم تاج الدولة ينظم الشعر ، ومن شعره ما جاء في الكامل لابن الاثير وفى يتيمة الدهر التي اثنى صاحبها على تاج الدولة واعتبر من جيد شعره قوله :

هبِ الدهر ارضاني واعتب صرفه
واعقب بالحسنى وفـك من الاسر
فمن لي بأيام الشباب التي مضت
ومن لي بما انفقت في الأسر من عمري

وقد كان من حرص آل بويه على تكريم الادباء انهم كثيراً ما كانوا يستوزرونهم ،فركن الدولة استوزر ابن العميد.وابنه مؤيد الدولة استورر الصاحب بن عباد ، ولما تولى الخلافة فخر الدولة بعد أخيه أقر الصاحب فى وزارته . وكان وزير معز الدولة الحسن المهلي الشاعر [1]

وهكذا فقد كان لا بد لمهيار في مثل هذا العصر الذي عز فيه الأدب من أن يكون قبلة الأنظار كيف لا وقــد اصبح الشاعر الوحيد بعد وفاة الشريف الرضي ، فمدح كثيرا وترلف

[1] - بطرس البستاني : ادباء العرب ص : ٣٠٣

كثيراً ، وبصورة مجملة فقد كان صورة للشعراء المرترقة في عصره وفي كل عصر ، ولم يكن شأنه المدح وحسب ، بل كثيراً ما كان يخوض غمار الصراع القائم بين العرب والعجم من ناح وبين السنة والشيعة من ناحٍ آخر . وقد كان محلياً في هذين المنحيين ويصح فيه قوله :

أنا الجاري إذا الحلبات طالت مراكضُها على الخيل العتاقِ
نفَضْتُ طريقها شَوْطاً فشوطاً وسُلِّمَ لي بها قصبُ السباقِ
فمن ذا يبتغي في الفضل سبقي وقد يئس السوابق من لحاقي

أجل لقد خاض مهيار حرب المنافسة والمفاخرة ، فكان بوق الدعاية الشعوبية من ناح وحامل لواء التشيع من ناحٍ آخر . وهذا ما سنراه مفصلاً في ابواب تالية .

حياته

(٣٦٧ ؟ - ٤٢٨ هـ)

عيشٌ كلا عيشٍ ونفسٌ مالها　　من لذة الدنيا سوى حسراتها
إن كان عندك يا زمان بقية　　مما يضام بها الكرامُ فهاتها

شكوى بائس لازمه الشقاء في طفولته وشبابه ، وسقاه الدهر كأس المرارة حتى الثمالة ، فبات صنو الكآبات يشكو الحظ الذي يجمع المستحيل ولا يجمع الرزق والأديب .

تجمع بين الماء والنار يد　　وما جمعت الرزق والأديبا

هذا الشقي البائس هو مهيار الديلمي . وكأن الشقاء أراد أن يلازمه في مماته أيضاً فأغفل المؤرخون نسبه التام وسنة ولادته ، ولم يشر هو في شعره إلى بلده ولا إلى ذويه ، فاكتنفه الغموض من سائر نواحيه . وكل ما كتبه المؤرخون أنه : أبو الحسن [1] مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسي الديلمي المشهور ، كان مجوسياً فأسلم.

---

١ - كنية مهيار ابو الحسين في وفيات الاعيان ولكنها ابو الحسن في اكثر الروايات « كدمية القصر » مثلاً وكتاب «المنتظم» وتاريخ بغداد ولعلها الأرجح

ويقال ان اسلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي ، وهو شيخه وعليه تخرّج في نظم الشعر ، وقد وازن مهيار كثيراً من قصائده ، وكان شاعراً جزل القول ، مقدماً على أهل وقته وله ديوان شعر كبير وهو رقيق الحاشية ، طويل النفس في قصائده [1] . ويضيف ابن خلكان أن « مهيار ومرزويه إسمان فارسيان لا أعرف معناهما ، والله تعالى اعلم » . وينقل ابن خلكان أقوال بعض المؤرخين في مهيار فيقول : وقد ذكره ابو الحسن الباخرزي [2] في كتابه المسمى « دمية القصر » فقال في حقه : هو شاعر ، له في مناسك الفضل مشاعر ، وكاتب تحت كل كلمة من كلماته كاعب ، وما في قصائدة بيت ، يتحكم عليه بلو وليت ، وهي مصبوبة في قوالب القلوب ، وبمثلها يعتذر الدهر المذنب عن الذنوب [3] . » وذكره ابو الحسن علي بن بسّام في كتابه المسمى « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وبالغ في الثناء عليه وذكر شيئاً من شعره . وتوفي مهيار ليلة الأحد لخمس خلون من جمادي الأخيرة سنة ثمان وعشرين وأربعماية هجرية . وفي تلك السنة توفي الرئيس ابو علي بن سينا الحكيم المشهور .

---

١ – وفيات الأعيان : ج ٤ ص: ٤١٤

٢ – هو ابو الحسن علي بن الحسن الباخرزي الشاعر المشهور ، صنف كتاب « دمية القصر » وهو ذيل « يتيمة الدهر » للثعالبي وقد قتل بباخرز في ذي القعدة سنة سبع وستين واربعماية. « باخرز هذه ناحية من نواحي نيسابور تشتمل على قرى ومزارع » .

٣ – دمية القصر : ص : ٧٦ – الديوان : ج ١ ص : ه .

وجاء في « المنتظم في تواريخ الملوك والأمم » للإمام أبي الفرج الجوزي ما نصه: « مهيار بن مرزويه أبو الحسن الكاتب الفارسي كان مجوسياً فأسلم سنة اربع وتسعين وثلثماية وصار رافضياً غالياً وفي شعره لطف، إلا انه يذكر الصحابة بما لا يصلح. قال له أبو القاسم بن برهان: يا مهيار انتقلت بإسلامك من النار من زواية الى زاوية، قال وكيف ذلك؟ قال كنت مجوسياً فأسلمت فصرت تسب الصحابة[1]... » وهكذا نتبين ان المؤرخين لم يهتموا كثيراً بشخصية مهيار، فأقوالهم لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تجلو لنا شخصية الرجل على حقيقتها، فلذلك علينا أن نلجأ الى الاستنتاج والتقريب ما أمكن لنصل الى جل الحقيقة لأن الوصول اليها كلها متعذر في مثل هذه الحال.

لقد أهمل المؤرخون كما رأينا ذكر السنة التي ولد فيها مهيار، واكتفوا بذكر سنة موته (٤٢٨ هـ ابن خلكان) وسنة إسلامه (٣٩٤ — المنتظم) « وإذا رجعنا الى شعره رجحنا أنه ولد في العقد السابع من القرن الرابع، أي حوالي السنة ٣٦٧ هـ كما يستفاد من قوله في مدح عميد الدولة أبي سعد بن عبد الرحيم سنة ٤٢٣.

يا قلبُ من أين على فترةٍ	رُدَّ عليك الولهُ العازبُ
أبعد أن ماتَ شباب الهوى	شاورك المحتنكُ الشائب
وبعد خمسين قضت ما قضت	وفضلةٍ انكرها الحاسب
هبّت باشواقك « نجدية »	مطعمةٌ أنت لها واجب

١ — الديوان : ج : ١ . ص : و

فهو يقرر أنه جاوز الخمسين بفضلة قد تكون سنة وقد تكون تسعاً ، فإذا توسطنا وفرضناها خمساً كان عمره في سنة ٤٢٣ هـ خمساً وخمسين سنة ، يضاف اليها خمس سنوات عاشها الشاعر بعد تلك القصيدة ، فيكون قد مات في الستين من عمره تقريباً ، أو جاورها قليلاً . ويؤيد هذا التقدير الذى ذهبنا اليه قوله في موضع آخر سنة ٤١٧ هـ في الشيب :

قالت على البيضاءِ أختُ عـامرٍ
أسفَرَ في فَوْدَيْـك ذاكَ الغيهبُ

ومن بلاياكِ وإن عِبتِ بِـه   شباب حي وعذارى الأشهبُ
غدرك والخمسون أي روضـة   قشيبة بينهما لا تجـدبُ

وقد عاش مهيار بعد ذلك أحد عشر عاماً ، فيكون مجموع عمره إحدى وستين سنة . »[1]

أما نسبته «الديلمى» فإنها ترجع إلى الأرض التي عاش فيها والتي يسكنها بنو جلدته ، وقد قال ياقوت[2] : إن الديلم ينسبون الى أرضهم بهذا الأسم لا الى أب لهم . وجـاء في تحفة العجائب لإبن الأثير : «جبال الديلم منيعة يتحصنون بها وهي كثيرة الغياض والشجر والمطر وهي جبال في نهاية الخصب. وذكر ابن خلدون» أن بلاد الديلم كانت الجبال وما يليها مثل طبرستان وجرجان وآمد.» وهكذا ينبئ أن الديلم شعب من ذراري الفرس ، ينسبون إلى

---

١ – الهلال ٠ مهيار الديلمي وشعره ص : ٢٣ – ٢٤

٢ – دائرة المعارف للبستاني مجلد ٨ – مادة ديه .

أرضهم التي تقع في القسم الشمالي من بــــلاد فارس ، ويحدها من الشمال جبـــال الجولان ، ومن الشرق طبرستان ، ومن الغرب أذربيجان أما من الجنوب فمنطقة قزوين[1]. في هذه المنطقة عاش والدا مهيار ، وكانا فقيرين على الأرجح فنزحا فى طلب الرزق الى بغداد وبغداد يومئذ خاضعة للنفوذ البويهي . والبويهيون ديالمة ، فارتقب الوالد خيراً في ظل بني عمـــه ، وهو الذى تربطه بهم وشائج القربى وصلات الدين ، فقــد كان الديلم وثنيين مجوساً ، الى أن بايعوا عليهم الحسن بن زيد العلوى سنة (٢٥٠ هــ ٨٦٤م.) وكان قد أسلم منهم فريق على يد عــلوى آخر يعرف بالحسن بن علي الأطروش[2] . وكان البويهيون أسبق الى الإســلام من والد مهيار ، لأن هؤلاء كانوا مهيئين للإستئثار بالسلطة ، وأما ذاك فهو معدم لم يؤثر عنه أي ذكر . وحالف الشقاء مهيار في حياته فلم يكن أسعد حظاً من أبيه بكثير ، إذ انه دائماً كثير الشكاية من الدهر ، ومن الفقر ، ومن الناس . اسمعه يقول

عيش كلا عيش ونفس مــالها من لذة الدنيــا سوى حسراتها
ان كان عندك يا زمان بقيــة مما يضــام بها الكرام فهاتها

أو يقول في مكان آخر .

وما الدهر الا داءُ همٍّ مماطل

مدى العيش او حظٌ هجوم مساغت

أو يشكو فقره بقوله واصفاً نفسه :

ومن حــامعٍ حسنات الخلال وقد قبــح الفقر تلك الخلالا

١ — Huart Dailem el Encyclopédie de l'Islam. p : 917
٢ — دائرة المعارف الاسلامية . مج ـ ٩ ص ٨ .

أو :
أشكو ظماي وليس غيرك ساقيا
فأمدد يديك على البعاد فروّني
قعد الغنى عني فقم بي مرغماً أنف الزمان واغني تتملّني
ويظهر إلحاحه في طلب العطاء جلياً في بعض ما تقدم، ولكنه أكثر صراحة في مخاطبته أحد ممدوحيه الأمير أبي الدوّاد المفرج بن علي بن مزيد أخي نور الدولة، فيطلب منه أن يعطيه ويزيد في العطاء، كبعض ممدوحيه الآخرين :
وكن «كعلى» أو فكن لى «كثابت»
وفاء واعطاء وان شئت فازدد
ومهما يكن من أمر فان مهيار نشأ نشأة فقيرة، ولازمه فقره في القسم الاكبر من حياته. وكأني بوالده قد رأى ان السبيل الى الوصول، لن يكون إلا عن طريق العلم، فأكب على تثقيف ولده، الذي ولد ونشأ نشأته الأولى في بغداد، وبغداد يومئذ جنة الدنيا، وبهجة الناس. أو كما قيل فيها «بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد». اما موارد الرزق فيها فبيئة الثقافة فهي دور الخلفاء ودواوين أصحاب الدول. ففي قصور الخلفاء والامراء كانت تلتقي الفئة الخيرة من الكتّاب والشعراء. وفي الدوائر الحكومية أو الدواوين كما كانوا يدعونها يومذاك. كان الكتّاب يعملون كديوانيين، وكانوا جميعا يصيبون حظا وافرا من الثروة والشهرة. وهذا ما كانت تصبو اليه نفس مرزويه. فدفع بولده الى الكتاتيب والمدارس الموجودة يومذاك في بغداد يتثقف ثقافة عربية خالصة تكون سبيله الى الشهرة والمجد. وأظهر

مهيار ذكاء وقدره على التثقيف ، وألم بكثير من شوارد
اللغة ومن دقائق التاريخ ، وأخذ يجتر هذا في شعره فيما بعد كما
سنرى . وامتاز مهيار بذاكرة عجيبة ساعدتـــه على استيعاب
الكثير من المعرفة . ولعل أهم حادث أثر في شخصيته وشاعريته
على حد سواء ، هو اتصاله بالشريف الرضي . والشريف يومئذاك
حجة الأدباء والاشراف . تولى والده نقابة الأشراف مدة من
الزمن ، وكان له الفضل الاكبر في اخمـــاد الكثير من الثورات
الشعبيه بما له من هيبة في النفوس تتضاءل عندها هيبة الخلفاء
يومئذ والأمراء الحاكمين. ولعب دورا كبيرا أيضاً في فض الخلاف
بين امراء الأسره البويهيه . وبكلمه موجزة ، انه كانت له مهابة
عظيمة في النفوس ، وكان يكتنفه الشرف من سائر جنباته .
ونشأ ولده الشريف الرضي على يديه فخلفه في نقابة
الطالبيين وامارة الحج . وقد اتصل به وارثه ... من
بعقراب عشر تلتها فترات اسر ، اذ ... من ...
من مناصبه ، ثم ردت عليه الاملاك ... حاله ...
وكان الشريف كريما محمود ...
لا يزال ...
والفكرية والدينية ...
الشريف ، مدح والـ...
طلوع ... اليها ...
اقتناء ...
...

وعلامة العربي دُهمة وجهه ومن الوجوه البيض غيرُ حسيب
والبدر أشرف طالع في أفقه وبياضه المرموق فوق شحوب

ولم يقتصر هذا التأثر على الألفاظ وحسب ، بل تعداه إلى الموضوعات أيضاً . وكأني بالاستاذ وبالتلميذ قد أصيبا باكراً بالشيب ، فنراهما يشكوان في شعرهما من ظهور «بارقة البياض» في مفرقيهما. والرضي كما نعلم شاعر جزل القول ، سلس العبارة يضيف الى حسن الصياغة عدم الصنعة في اختيار التعابير المجازية ملقحاً معانيه البدوية بمعانٍ حضرية ، فتبدو جميلة محببة . وهذا المسلك هو الذى نهجه مهيار من بعد . وإن قصر التلميذ عن مجاراة استاذه فى ميدان الصناعة الشعرية ، فقد فاقه فى اكثر الأحيان فى طول النفس الشعرى .

ولقد أحب الشريف مهيار وأخذ يسعى في سبيل خدمته ، والاحسان اليه» ولا يبعد أن يكون قد سعى ــ بما له من منزلة في الحاق مهيار كاتباً بديوان الخلافة ببغداد ، كما يظهر ان مهيار سعى جاهداً في ذلك آملا ان يصبح له من الشأن ، ما لأعلام الكتاب ، أمثال ابن العميد والصابي وغيرهما ممن رفعتهم الكتابة . ولكن سرعان ما صرفه عنها شيطان الشعر الذى ملك عليه نفسه ، وآنس من مواهبه استعداداً له فأقبل على نظمه وتجويده [1] .) وبلغ من شدة افتتان مهيار بالشريف أنه بات يميل لاعتناق مذهبه الديني ، ثم أصبح المدافع الذي يتقد حماساً عن هذا الدين . ونحن نعلم ، أن بلاد الديلم كانت مسرحاً

١ ــ الهلال ص ٢٨

لدعاة الشيعة ، ونعلم أيضاً ان الحسن الاطروش كان من دعاة المذهب الزيدى ، وأنه اسس دولة ريدية المذهب في جنوب بحر قزوين عام (٢٥٠ هـ - ٨٦٤ م [١]) وهـذا المذهب أقرب ما يكون الى مذاهب السنة ، وليس لدينا ما يثبت أن والد مهيار قد اعتنق هذا المذهب ، بل على الارجح انه بقي على مجوسيته ، لأن ولده الذي نشأ في بغداد بقي مجوسياً حتى اتصل بالشريف ومنذ اتصاله بالشريف حدث التحول العظيم في حياته ، فأثر في مجرى تطوره الفكري تأثيراً بليغاً . فمهيار شاعر شعوبي قبل كل شيء ، وهكذا فإنه أخذ يمزج بين التشيع والشعوبية لما رآه من اقبال بني جلدته على اعتناق المذهب الشيعي والتحمس له ، والدفاع عنه . فلم يتأخر عن ان يتشيع في بدء اتصاله بالشريف ، واخذ يناضل عن أهل البيت قبل أن يسلم ، وسنرى اسباب ذلك مفصلة في باب الحديث عن « مهيار شاعر الشيعة » . نرى ذلك بيّناً في قصيدته التى قالها عام ٣٨٧هـ . وفيها يفخر ببني قومه الفرس ثم يفتخر بآل البيت . وبعد ان تمكن التشيع من قلبه ، لم يكن له بـد من إعتناقه الإسلام . وما أن أسلم حتى تاه وزهي بدينه الجديد ، واخذ يهزأ بدينه القديم ومعتنقيه .

تبدّلتُ من نارهم ربّها وخبتُ موقدها الخلد طيبا

وطبيعي هذا الشعور لمعتنق دين جديد « فلكل جديد طلاوة » كما يقولون . ثم ان المنتقل من حالة الى اخرى يحس بنشاط جديد وحماس شديد يدفعانه ليتلاءم والحالة الجديدة التي انتقل اليها .

١ - الوسيط : ١٣ - ٣٧ - دائرة المعارف الاسلامية مادة Zaidites

وأكثر ما يتجلى ذلك في القضايا الدينية، فأكثر المتحمسين لدين ما، هم الذين اعتنقوه حديثاً. وقد جرى هذا لأبي تمام، فبعد انتقاله من الفرس الى العرب ومن النصرانية الى الاسلام، أصبح اكثر الناس حماسة وفخراً بالعرب وبالإسلام معاً.

وهكذا أخذ مهيار يكيل المدح للإسلام وللمسلمين معاً، واكثر ما كان يفخر بالنبي محمد، واكثر ما كان يتلهف على الأئمة ولا سيما المقتولين منهم. قال:

أمثل محمد المصطفى اذا الحكمَ وليتموه لبيبا
أبان لنا الله نهج السبيل ببعثته وأرانا الغيوبا.

وليس في التاريخ ولا في آثار مهيار ما يدلنا على انه اتبع مذهباً غير المذهب الامامي الذي كان يدين به استاذه الشريف، فلا هو دان بالمذهب الزيدي مذهب أسلافه، ولا هو اعتنق مذهباً شيعياً آخر. وليس في التاريخ ولا في شعر مهيار ما يدلنا على أنه اعتنق المذهب الامامي أيضا، لذلك لجأت الى الحدس والترجيح اذ لا مجال للبت في قضية تعوزها النصوص والحجج الدامغة، وإن كانت القرائن متوفرة. فالشاعر كان كأستاذه الشريف. والشريف امامي اثنا عشري. وفي شعر مهيار تفجع وبكاء على الائمة المخذولين وحبهم هو الذي دفعه الى اعتناق الاسلام. فمن المحتمل، ومن المعقول جدا أن يكون قد اعتنق المذهب الامامي شأن الشريف.

ولعل للشريف يداً في اسلام مهيار، فقد يكون توسم فيه النبوغ والذكاء والشاعرية، فأراد أن يصطنعه تبعاً لمذهب

الشيعة . ويجب الا يغرب عن بالنا قط ان المنافسة كانت قائمة على قدم وساق بين سنة وشيعة ، وقد عمل بنو بويه على إذكاء نارها . وكثيراً ما انبرى الشعراء السنيون لمهاجمة الشعراء الشيعيين ، وكثيراً ما بادلهم هؤلاء المثل بالمثل . وكان الميدان أرحب للشيعيين في النيل من خصومهم السنيين . فهم يرمون أبا بكر وعمر بكل شائنـــة ، ويستنكف شعراء السنة عن مثل هذا لأن مهابة علي كبيرة في نفوسهم ، وإنما يشتمون على اتباعه . وكثيراً ما خاض مهيار غمار هذه المهاترات ، فينبري له شاعر سني يدعى : « على بن عيسى السكري » . ولو اقتصر هذه الخصومة على الشعراء لهان الامر ، ولكان خطرها ضئيلاً . ولكنها كانت تتعدّاهم الى الفئة الحاكمة ، وتتفرع الى سائر مرافق الدولة . فإن ولي الأحكام شيعي نكل بالسنة وأجلاهم عن مراكزهم ، وان تولى سني مقاليد الامور لم يعف عن الشيعة ، ولم [illegible] بل يبادلهم المثل بالمثل واكثر ما تجلى هذا [illegible] في العهد البويهي كما قلت .

وبقي مهيار عائشا في كنف استاذه الشريف [illegible]
الشريف ربه عام [illegible] هـ . وكان طوال حياته الحامي الأمين لمهيار . ولقد أحس شاعرنا بالفجيعة ، فمضى يرثي [illegible] رفيق ، لا بل من أرق [illegible] . وقد رثاه في مناسبات عديدة .
قال في إحدى مرثياته .

أقريش [illegible] أرأيت [illegible]

فتياً كأي غض [illegible]

بكر النعيَّ فقال : أردي خيرُها

إن كان يصدق فالشريف هو الردى

ففي هذه القصيدة التي سيكون لنا إليها عود في الكلام على رثاء مهيار — تفجع ظاهر وشعور بالمصاب عظيم ، وأداء شعري جميل . فمهيار يبكي من كان عونه وساعده الأيمن . . . ولكن مهيار أفاد من ناحية أخرى اذ انه بوفاة الشريف وبوفاة ابن نباتة السعدي ، خلا له الجو واصبح رجل الأدب في بغداد دون منازع . واصبح الممدوحون من امراء واثرياء يخطبون وده ويطلبون رضاه بعد ان كان يتودد اليهم ويتقرب منهم . وحسنت حاله واصاب خيراً ومالاً اخرجه بعض الشيء من حالة الشقاء والفقر . ولكنه بقي يذم الزمان واهله والدنيا والمشيب وما اشبه ذلك . فكأنه ألف هذا النوع من القول والتفكير . وبقي بعد ذلك التاريخ يمدح الملوك والامراء اكثر من عشرين عاماً . وقد كثر ممدوحوه كثرة فاحشة . وهم في اكثرهم من الفرس . ولعل بني عبد الرحيم كانوا اكثر حظوة من مدائحه . فقد خصهم بقسم كبير من قصائده . وكانت أجود مدائحه فيهم . وكان « الصاحب أبو القاسم بن عبد الرحيم نقيب النقباء على جيوش الأتراك في جميع أنحاء الدولة ، وهو مركز له خطره[1] » وكان بنوه فرساً متشيعين يعطفون على مهيار فأجاد في مدحهم .

والممدوح الاخر الذي نال من الحظوة نصيباً كبيراً في مدائح مهيار هو « أبو طالب محمد بن أيوب » . وكان قد استوزره

---

١ – الفلال : ص ١٠٦

الخليفة القادر بالله (سنة ٣٨١ — ٤٢٢ هـ .) ومن بعده وزر لابنه الخليفة القائم بأمر الله فأظهر في خدمة الخليفتين كفاية واخلاصاً[١]

أما سائر الممدوحين فهم كثر منهم : أبو نصر سابور — وأبو الحسين الهماني ، وفخر الملك أبو غالب ، وابو منصور بن المزرع. وعميد الدولة ابو طالب ومحمد علي بن الطيب ... وكثيرون غيرهم .

وهناك ظاهرة لا بد من الاشارة اليها ، وهي أن مهيار لم يمدح أحداً من الخلفاء العباسيين ، وهذا ما نستغربه لأن اكثر الشعراء الذين مدحوا ، كانوا يقفون مدائحهم على الخلفاء . واذا ما اجهدنا أنفسنا وحاولنا اكتشاف الأسباب رجحنا أن غلو مهيار في تشيعه من جهة وضعف الخلفاء من جهة ثانية ، وعصبية مهيار الفارسية من جهة ثالثة ، كل هذه الأسباب حالت دون الشاعر ومدحه الخلفاء وهم من السنة ، ولا حول لهم ولا قدرة ، ولا مال لديهم كي يجودوا به ، لأن الخلافة في ذلك العهد أصبحت اسماً لغير مسمى . وأصبح القول والفعل للملوك والسلاطين من آل بويه . وأخذ هؤلاء يضيقون الخناق على الخلفاء ، ولا يجودون لهم من المال إلا بمقدار . والشاعر جشع يؤثر العطاء على أي شيء آخر . فكان من الطبيعي إذاً ان يعرض عن مدح هؤلاء الخلفاء العاجزين . والشاعر بحاجة لمن يحميه وها هو يرى الخليفة يخلع ساعة يشاء الملك البويهي ، وقد تسمل عيناه ويمثل به . فولى وجهه شطر الامراء واعيان الدولة.

وهناك ظاهرة اخرى عجيبة ايضاً ، هي ان ديوان مهيار على

---

١ — الفلال : ص : ١٠٨

ضخامته لا يحوي مدحاً لملك بويهي الا ما كان من مـــدح ركن الدين شاهنشاه جلال الدولة بن بهاء الدولة الذي ولي الاحكام عام ٤١٨ هـ .[١] فكان هذا الملك هو الوحيد من بني بويه الذي ظفر بمدائح مهيار . ولست استطيع تبـــين السبب في اعراض الشاعر عن ملوك بني بويه مع انهم من طائفته ومن جنسه : فرس شيعة ، وهم اقوياء . هناك سبب قد يكون وجيهاً وهو ان الشاعر لم ير منهم كرماً ، وقد كان همهم كل همـــهم الاستئثار بخيرات الدولة وجمع المال دون ان يشركوا الرعية بشيء من مالهم . والشاعر جشع كما قلنا لا يؤثر شيئاً على المال . فقد يكون هذا مما حمله على الصدوف عن مدح البويهيين او انه لم يشأ ان يثير حفيظة واحدٍ منهم عليه ، وهم دائمـاً في نزاع مستمر . فاذا مدح واحداً منهم وانتقلت السلطة الى آخر ، فقد ينقم هذا الملك الجديد على الشاعر لكونه من انصار الملك المخلوع . ولهـذا آثر أن ينصرف عن مدحهم كافة، وله في نوال الأمراء سواهم غنىً عنهم .

وعلى الجملة فقد كان مهيار يرخص كرامته ويتذلل في سبيل المال . وإن يسرت حاله في آخر زمانه فقد بقي ملحفاً في السؤال يستعطف ويتودد ، وهو الى ذلك كثير الاعجاب بشعره، فخور بهذا الشعر ، ولكنه لا يحجم عن طلب المال مقابل هـذا الشعر النفيس . وقد كان يغتنم الفرص والمناسبات فيدبج ما جاد به قلمه السيال ويهدي في وقت واحـــد اكثر من قصيدة الى اكثر من

---

١ — القلال : ص : ١١٢

ممدوح كما كان يفعل في عيد المهرجان أو النيروز او الاضحى او غيرها من الأعياد. كل هذا لينال اكبر كمية ممكنة من المال. وغني عن البيان ان شعراً « تجارياً » كهذا يفقد الكثير من قيمته الفنية ، لأنه وليد المناسبات والظروف ، وقيمة مثل هذا الشعر في انه يؤرخ الأحداث التي تجري في العصر الذي قيل فيه . وهكذا فإنه يصح القول في مهيار انه « معلم عصره » لكثرة ما يورده من الأخبار والإشارات التاريخية في شعره . وهكذا بعد فترة تبلغ العشرين عاماً بعد وفاة الشريف عاش مهيار كأنه رحل الادب دون منازع ، الى أن قُبض سنة (٤٢٨ هـ) ولم تشتف نفسه من دنياه ، ولم تشتف في مماته ايضاً فأغفله المؤرخون والأدباء ولم يأتوا على ذكره الا بايجاز كلي لا يبلور تلك الشخصية الطريفة .

ديوانه

مهيار شاعر غزير المادة قل من جاراه من شعراء العربية في كثرة النظم وفي الاسهاب في منظوماته . لا استطيع ان أمثل له نداً سوى ابن الرومي، وان كان ابن الرومي يقصر عنه في بعض الاحيان ، ولا يجاريه في الاسهاب والتطويل . ويصح القول في مهيار انه « نوّاحة مداحة » . فكل ما جاءفي ديوانه الضخم لا يخرج كثيراً عن هذين البابين . وقد كان له من قوة الطبع فيه خير رافدٍ على الاكثار من النظم والتطويل ما امكن . وعلى هذا فقد كانت بعض قصائده تقارب الثلاثماية من الابيات . وهكذا تجمع لدينا ديوان ضخم من شعره ظهر مطبوعاً في اربعة اجزاء من القطع الكبير (٢٨ سم × ١٨ سم) . وقد جمع هذا الديوان بين دفتيه ما يقرب من واحد وعشرين الفاً من الابيات (٢٠٩٦٩) موزعة في اربعماية قصيدة تقريباً (٤٠٩) . وقد وزعت هذه الابيات والقصائد في سائر اجزاء الديوان على الشكل التالي :

الجزء الاول يحتوي على ماية وقصيدتين تحوي خمسة آلاف وتسع ماية وخمسة ابيات . ويتكون من اربعماية وست وعشرين

صفحة .

الجزء الثاني : يحتوي على ماية وخمس وخمسين قصيدة تحوى ستة آلاف ومئة وبيتين. ويقع فى ثلاثماية وثلاث وسبعين صفحة.

الجزء الثالث : يحتوي على خمس وتسعين قصيـــدة تحوي خمسة آلاف وسبعماية وستة وتسعين بيتاً . ويقع في ثلاثماية وسبعين صفحـــة .

الجزء الرابـع : يحتوي على سبع وخمسين قصيدة تحوي ثلاثة آلاف ومئة وسته وستين بيتاً ويقع فى مايتين وسبـع صفحات . بقي هذا الديوان الضخم نسياً منسياً حتى قتفت الفكرة لأحمــد نسيم أحد الذين اشتغلوا بالأدب في مصر ، فاستعان بدار الكتب المصرية ، وأخرج الديوان في طبعته الحالية ، وهي الوحيدة التي نتداولها . وهي على مآخذها لا بأس بهـا من حيث الاخراج ، وابتغاء الصحة ، الا انها اعتمدت الترتيب الابجدي للقصائد أي الترتيب الذي وجدت فيه نسخ الديوان . وفى ذلك بعض المشقة على المطالع .

ظهرت هذه الطبعة الأولى من الديوان سنة ١٣٤٤ هـ الموافقة ١٩٢٥ م . وقد طبعت على مطبعـــة دار الكتب المصرية . وقد عرض الناشر في بدء الجزء الاول حياة الشاعر مهيـــار الديلمي مستنداً الى « وفيات الأعيان » و « دمية القصر » و « المنتظم » و « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » . ثم يعود الى الكلام على كيفية تصحيح النسخة واعدادها للطبع .

تصحيح الديوان واعداده للطبع : جاء في القول المأثور : أن

من حاول فأفلح له أجران . ومن حاول ولم يفلح له أجر واحد ، أجر المحاولة والرغبة في الاتيان بشيء جديد . وعلى هذا فإن سعي أحمد نسيم مشكور وإن كان لا يخلو من بعض المآخذ كما أشرت آنفاً . فهو يعرض لنا كيف عمل في تنقيح النسخة الخطية التي وقع عليها . ويشير الى ما لاقاه من صعوبات . وبديهي أن عملاً كهذا يتطلب جهوداً جبارة ولكنه يبقى عرضة للنقد، اذ انه لا يرتكز الا على نسخة واحدة في تصحيحه . وهذه أضعف وسيلة في التحقيق العلمي . ولن يشفع لأحمد نسيم توفقه كما زعم الى الاهتداء الى الكلمات المطموسة بوضع كلمات تطابق المعنى ما أمكن . فإن هناك شيئاً خاصاً يبقى ناقصاً . تلك هي كلمات الشاعر نفسه . فإننا لسنا ندرك أية لفظة يريد استعمالها على الوجه الصحيح وان كانت الألفاظ التي اختارها احمد نسيم تقترب ما امكن من المعنى المراد .

ولسنا نستطيع الجزم ان كانت صحيحة او خاطئة ، لأن الناشر ينبئنا انه لم يعثر الا على نسخة واحدة مخطوطة فاعتمدها . وجدها في دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٣٩ أدب، ويقول ان خطها من خطوط اوائل القرن السابع [١] . وفي معرض حديثه عن الجهد والنصب اللذين كابدهما في استجلاء ماطمس من الكلمات يشير الى انه وقع على نسخة مطبوعة عام ١٣٠٦ ، وتنتهي بحرف الدال ، ولكنها « مشحونة بالاخطاء حتى صرنا لا نعول عليها

---

١ — الديوان : ج : ١ ص : ز

عند المراجعة[1] . ويقودنا المطـــاف الى مقدمة الجزء الرابع والأخير من الديوان ، فنرى الناشر يشير الى العثور على نسخـة خطية أخرى . ولكنها جلت له بعض الغموض و الابهام وصيرت شكه يقيناً في بعض الكلمات التي وضعها مكان الكلمات المطموسة. واني ارى من المفيد نقل كلامه تدليلاً على النهج الذي سلكه في مقابلة النسخة الأخيرة بما وضعه هو زيادة على النسخة الأولى ، وتصحيحاً لما حُرّف فيها . يقول :

« ولقد ظفرنا أثناء العمل في اواخر هذا الجزء بنسخة خطية أخرى ، استحضرتها دار الكتب ومكتوب عليهـــا » انه تم استنساخها في سنة الف وثلاثمائة وست هجرية » فعلقنا عليهـا امالاً كباراً في الاستئناس بها الى جانب النسخة الفوتوغرافيـة فإذا بها كأختها تشتمل على كثـير من التحريف والتصحيـف والنقص والطمس ، وكان بودنا ان نضع لذلك مثلاً في اول هذا الجزء كما فعلنا في الجزء الاول والثاني . ولكنـا اكتفينا بما نبهنا عنه في طيات الشروح التي وضعناها في ذيول الصحـــف . وانه لكثير ، عدا ما ضربنـــا عنه صفحاً لقربه من التصويب وان احتاج في ذاته الى عناء كبير . ومما تحسن الاشارة اليه هنا ، تلك القصيدة السينية التي نشرنا صورتهـا الفتوغرافية في اول الجزء الثاني على سبيل المثال ووقع طبعها فيه من صفحة ١٢٨ — ١٣١ وقد نبهنا عنها في اول الجزء الثـاني بقولنا : « ان اوائل ابياتها طمست طمساً تاماً او بقي من كلماتها اواخر حروفها ووضعناها

---

١ — الديوان . ج . ١ ص : ح

بين هذه العلامة [ ] [1] » .

وبالفعل فإن من يعود الى تلك القصيده يرى فيها الزيادات واضحة كل الوضوح. وقد أشار المصحح الى الكلمات التي صححها في ذيل الصفحات مثلاً [2] :

[ذكرتُ] وما وفاي بمجبثٌ أسى
« بدجلة » كم صباح لي ومُمسى
[مغان] نجتني منها نعيماً ولم نغرس بفعل الخير غرسا
[إذا][فجع]الفراق قبضن عشراً وان فجأ اللقاء بَسطن َخمسا
[عرانين] مع الجوزاء شم ٌ تشمُّ عداتها الإرغامَ فُطسا

هذه نماذج من الابيات التي طمست معالم بعض كلماتها . وقد وضع المصحح الكلمات المطموسة بعد تصحيحها بين معقفات ، وأشار الى اصولها في النسخة مثلاً ذكرت: في الاصل « ت » معان: في الأصل « ن » اذا — لا وجود لها في الاصل . فجع — في الأصل « سع » . عرانين — في الأصل « نين » وهكذا فقد لجأ الناشر الى نوع من التقدير يقتضيه سياق المعنى ، واعتقد انه اقترب كثيراً من الأصل . وهذا ما يؤكده هو أيضاً بالاستناد الى المخطوطة التي اكتشفها في آخر عمله وأشار اليها في مقدمة الجزء الرابع ، فيضيف قائلاً « وبمراجعة هذه القصيدة على النسخة الخطية التي استحضرت أخيراً وجدنا اننا وفقنا الى كثير

١ — الديوان : ح : ع ، ص : و
٢ — الديوان : ح : ٢ ، ص : ١٢٨

من الكلمات التي رجحناها واختلفنا في بعض منها ، لذلك أعدنا في آخر هذا الجزء طبع الكلمات التي تخالفنا فيها ليستدركها القارىء في محلها ... »

ومهما يكن من امر ، وان يكن سعي الناشر محموداً في هذا المضمار ، الا انه لا يجنبه تهمة النقص في الصبغة العلمية المضفاة على الديوان وهذا ما توقعههو بنفسه .وانها لفضيله ان يقر انسان ببعض النقص يطرأ على اعماله .

وبعد ان يفرغ الناشر من المقدمات المتعلقة بحياة مهيار وكيفية تصحيح الجزء الأول ، وذكر الأمثلة ، يعرض لنا نماذج فوتوغرافية للنسخة الخطية ، وهي من الرداءة بمكان ،مطموس اكثرها ، قبيح خطها ، مختلط بعضه ببعضه في كثير من الاحيان . اما الطريقة التي اعتمدها في طبع سائر الأجزاء فهي واحدة ، تقوم على اثبات الأبيات في وسط الصفحات مع الاشارة الى شرح ما عسر فهممن الألفاظ في ذيل الصفحة . ولكل قصيدة مقدمة صغيرة اصلية فيها تنبىء عن ظروف نظمها .

وفي آخر كل جزء ثبت لتصحيح بعض الاخطاء المطبعية . اما قيمته الفنية فليست كبيرة جداً ، لأن ما يكسبه الانسان في الاتساع يفقده في العمق . وعلى هذا فقد كان ديوان مهيار بمجمله تقريباً اجتراراً لمعاني مكرورة رددها الشعراء من قبله ثم عاد هو يرددها عشرات المرات . والديوان في معظمه يقوم على دين رئيسين وهما المدح والرثاء . واكثر المصادر قدمت في

مناسبات كبرى كالمواسم والاعياد . اما مايستفيده منه الدارس ، فإنه يعطي فكرة واضحة عن العصر الذي نشأ فيه مهيار ، لأنه لم يترك حادثاً طفيفاً الا وذكره .

مهيار شاعر الشيعة

١ – تعريف عام :

« الشيعة » لغة، لفظ معناه الاتباع والأنصار . ويطلق على المثنى والجمع، والمذكر والمؤنث فتقول : هو شيعة، وهي شيعة، وهما وهم شيعة ، وجمعه شيع وأشياع ، ثم صار علماً بالغلبة على اتباع علي بن ابي طالب » [١] . وجاء في الملل والنحل للشهرستاني والشيعة هم الذين شايعوا علياً عليه السلام، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصاية ، إما جلياً واما خفياً ، واعتقدوا أن الامامة لا تخرج من اولاده ، وان خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده [٢] . والأقوال في الشيعة كثيرة ووافرة فقد ذكرتها اكثر كتب اللغة ، وكتب التاريخ والفقه ، منها : لسان العرب، وأقرب الموارد وابن خلدون في مقدمته . وقد وردت هذه اللفظة أيضاً في القرآن الكريم في موردين : الاول في سورة

---

١ – السيد عبد الرزاق الحسني – تعريف الشيعة : ص ٦ . خطط الشام : ج : ٦ ص ٢٥١

٢ – الشهرستاني ص . ١٠٧

الصافات(٣٧)الآية ٨٢ (...ثم أغرقنا الاولين * وان من شيعته لإبراهيم *اذ جاء ربه بقلب سليم*)والثاني في سورة القصص(س : ٢٨) الآية (١٤) في حديث دخول موسى الى مصر (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه . الآية) . وهكذا يتبين لنا أن اصل اللفظة قديم في الاسلام . ولكن كيف اكتست فيما بعد صبغة مذهبية معينة ، فهذا يعود الى مشكلة الخلافة وما اورثته من احقاد واعمال شائنة يندى لها جبين التاريخ الاسلامي ، وأدت الى تفكيك اوصال الأمة فيما بعد كما يقول رونلدسن[1] في كتابه عقيدة الشيعة . وحكاية ذلك انه عندما انتقل النبي الى الرفيق الاعلى كانت المشكلة الأولى التي جابهت المسلمين هي قضية الخلافة، وهو لم يترك عقباً، ولم يترك نصاً صريحاً في أمر الخلافة ، وكانت الجماعة الاسلامية يومذاك تقسم الى قسمين جاء ذكرهما في القرآن الكريم نفسه ، عنيت : المهاجرين والانصار . ولم يُحل عيش التفاهم والمودة الذي كانوا يحيونه معاً في حياة الرسول دون اغتنام الانصار الفرصة ليجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، وهناك بدأت اولى المحاولات وآخرها لتعيين الخليفة الذي يتولى شؤون الأمة الإسلامية بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم . وكانت تلك الفترة حاسمة في تاريخ الامة الاسلامية ادت الى الوحدة من جهة والى الانقسام فيما بعد من جهة ثانية . ولن نتوسع في كيفية

---

١ — رونلدسن : عقيدة الشيعة : ص : ١٩

مبايعة ابي بكر في السقيفة ، وقد ورد ذكره في اكثر كتب التاريخ الاسلامي . ولعل اشهره ما اورده النوبختي [1] . ولكن الذي يعنينا هو ان علياً قد امتنع بادىء ذي بدء عن مبايعة ابي بكر وقد تذرع اشياعه من بعد ان النبي قد اوصى له بالخلافة صراحة .

بدأت حركة التشيع واضحة اذاً بعد وفاة الرسول مباشرة، غير انهناك من يرد مبدأ التشيع الى حياةالرسول ايضاً . فهناك جماعة كانت تميل الى علي ، وتقدر فيه سداد الرأي ، والجرأة حتى اذا مات الرسول قالوا بأحقية علي بخلافته . وفي طليعة هؤلاء : سلمان الفارسي ، وابو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود الكندي [2]. ومنذ ذلك الحين بدأت نظرة الناس تختلف الىعلي، واخذت تتشعب من مبدأ التشيع مذاهب مختلفة ، تتباين من حيث تقديسها لعلي او النظر اليه كرجل عادي ، غير انها تتفق بمجملها على افضليته على سائر الصحابة .

والشيء الذي يهمنا درسه فيالمذهب الشيعي هو كيفية انتشاره في بعض البلدان التيدانت بالاسلام وكيف صادف هوى في نفوس بعض الشعوب ، لنخلص من ذلك كله لتبيان اثر التشيع فينفس مهيار الديلمي

لقد رأينا ان التشيع نسأ منذ الوهلة الأولى لوفاة النبي ،

---

١ – النوبختي : فرق الشيعة ص : ٣ وما بعدها .

٢ – دائرة المعارف الاسلامية . مادة شيعة . أحمد امين : فجر الاسلام : ج ٣ ، ص : ٢٠٩

وقال قوم بخلافة علي، الا ان الظروف السياسية ابعدت علياً عن الخلافة وتولاها قبله ابو بكر وعمر وعثمان . وكانت نفوس اشياعه في ذلك الوقت تكظم غيظاً يمنعها عن اظهاره اعتصام الامام بحبل الصبر حتى اذا آلت اليه مقاليد الخلافة أنسوا شعوراً برجوع الحق الى اصحابه ، ولكن سرورهم هذا لم يطل امده اذ سرعان ما قام الطامعون بسرير الخلافة يطالبون علياً بدم عثمان، وهم يتخذون هذا الطلب ذريعة يسترون بها مآربهم الدفينة . وكان على رأس هذا النفر معاوية بن أبي سفيان ، الذي طالما راودت ذهنه فكرة الخلافة والاستئثار بأمجاد الاكاسرة والقياصرة .

وكانت المواقع الحربية، وكان مؤتمر التحكيم، وآلت الخلافة الى معاوية بعد ان انتهت بقتل الامام . ففجع الشيعيون بإمامهم وانهارت آمالهم وثارت احقادهم وكظموا غيظهم ودانوا بالتقية واخذوا يعملون على تقويض دعائم العرش الأموي بإزالة معاوية . وكانت خيبتهم أشد اذ جعل معاوية الخلافة كسروية اي وراثية، وجعل يزيد ولي عهده . وكانت فاجعة كربلاء الشهيرة، فسالت الدماء ، ومنذ ذلك الحين ما توقف سيل الدموع على الضحايا البريئة من آل البيت كل هذه العوامل جعلت الأمور تتأزم في نفوس انصار علي وباتوا ينتظرون يوم الفرج، فلجأوا الى الثورات، والمؤامرات وقد وفقوا الى ذلك ، بعد ان شد ازرهم الفرس . ودكوا العرش الأموي غير ان الاماني التي كانوا يحلمون بها ، انقلبت حسرات وزفرات اشد مما كانت عليه في ايام الامويين .

ذلك ان ابناء عمهم العباسيين استأثروا بالسلطة من دونهم ، واوقعوا بهم وازعجوهم عن حقهم الشرعي ، فثارت ثائرتهم ، ولكن بطش الخلفاء ، كان لهم بالمرصاد ، فأخفقوا ولاذوا بالصمت يبكون تراثهم الضائع ، ويبكون ضحاياهم بآلم ما يكون البكاء .

وهكذا فقد ذاق الشيعة ضروباً من العنت والتنكيل ، إن في ظل الدولة الاموية او في ظل الدولة العباسية فأترعت نفوسهم بالأسى والحزن وعلى هذا فإننا نرى ادبهم يتشح بمسحة حزينة ويغلب فيه الرثاء والبكاء على صفاء في الشعور وصدق في الأداء .

وقد نشأت فيهم طائفة حسنة من الشعراء منهم : الكميت بن زيد والفرزدق ودعبل الخزاعي والسيد الحميري وابو فراس والشريف الرضي ومهيار الديلمي الشاعر الذي سقنا هذا البحث لتوضيح عقيدته الشيعية وكيفية تشيعه .

٣ ـ مهيار شاعر الشيعة :

ألمعت في معرض الحديث عن حياة مهيار الى كيفية اعتناق الشاعر الاسلام . وأوضحت في معرض الكلام عن مذهب الشيعة ، كيف ان هذا المذهب وجد أرضاً خصبة في ديار فارس . وعلى ضوء هاتين الناحيتين نستطيع ان نتبين معالم تشيع مهيار بأثرها وكيف انه اصبح فيما بعد بوق الدعاية العلوية .

عدت الى الديوان استوضحه الخبر ، واتتبع فيه ما قاله

مهيار في مذهب التشيع ومعتنقيه ، فوقعت على نواح طريفة جداً من حياة الشاعر . ذلك انه اتخذ التشيع مذهباً ، ولما يسلم بعد او بصورة أوضح ، لقد كان تشيعه مرقاته الى الاسلام ، ولم يكن اسلامه مرقاته للتشيع ، وفي هذا من الغرابة ما فيه فكيف يتشيع مجوسي قبل ان يسلم ؟ لقد قال في قصيدة نظمها قبل اسلامه بسبعة أعوام أي عام ٣٨٧ هـ مخاطباً العرب : [١]

ما برحت مظلمةٌ دنياكمُ حتى أضاء كوكبٌ في هاشمِ
حللتمُ بهديهِ ويمنه بعد الوهاد في ذُرى العواصم
ثم قضى مسلّماً من ريبة فلم تكن من غدركم بسالمِ
نقضتم عهوده في أهله وحلتمُ عن سنن المراسمِ
وقد شهدتم مقتل ابن عمه خير مصلٍّ بعده وصائم
وما استحلّ باغياً إمامكم يزيد «بالطفّ» من «ابن فاطم» [٢]

فهو في هذه القصيدة كما يتضح لنا من الابيات التي اوردناها شديد التعصب لآل علي يتلهف على قتلاهم ويذم الذين نكلوا بهم .

وأوضح من هذا قوله صراحة في احدى قصائده :

لهفَ نفسي يا آلَ طه عليكمْ لهفةً كسبُها جوىً وخبالُ
وقليلٌ لكم ضلوعي تهتز مع الوجد أو دموعي تذالُ
كان هذا كذا وودي لكم حسـ ـب ومالي في الدّين بعد اتصال
حبكم كان فكّ أسري من الشر ك وفي منكبي له أغلالُ

فمهيار يعترف صراحة أن هوى العلويين كان السبب في

---

١ – ديوان . ج . ٣ . ص . ٣٣٥

٢ – الطف : الموضع الذي قتل به الحسين رضي الله عنه

اعتناقه الاسلام . وقبل ان يسلم بعامين أي سنة ٣٩٢ هـ نظم قصيدة ضمنها حقيقة شعوره نحو علي وآله :

جوىً كلما استخفى لبخمد هاجه
سنا بارقٍ من أرض كوفان خاطفِ
يذكرني مثوى عليّ كأنني
سمعت بذاك الرزء صيحة هاتفِ
ابا حسنٍ إن أنكروا الحق واضحاً
على انه والله انكار عارفِ
أخصتك بالتفضيل الا لعلمه
بعجزهمُ عن بعض تلك المواقف
سلام على الاسلام بعدك انهم
يسومونه بالجور خطة خاسف
هواكم هو الدنيا واعلم انه
يُبيِّضُ يوم الحشر سود الصحائف

وهكذا يتبين لنا أن حب آل البيت قد استحكم في قلب الشاعر وطغى على كل حب سواه . ولعل السبب في ذلك يعود الى ديلميته في الدرجة الاولى ، والى فارسيته في الدرجة الثانية ، والى اتصاله أخيراً بالشريف الرضي ؛ وذلك الاتصال الذي كان له كبير الأثر في مذاهب مهيار الفكرية . فالديلم كما نعلم كانت مسرحاً لدعوة الشيعة ، والدعوة الشيعية كانت قد اجتاحت بلاد فارس بأسرها تقريباً . والشريف كان قد أنس ذكاء وعلماً ونجابة في شاب مجوسي ، فشاء اصطناعه وتجنيده في ابواق الدعاية الشيعية . ولقد كان مهيار قابلاً للتفاعل بمثل هذه التيارات لأنه لم يكن بعد قد تأثر بالمذاهب المختلفة الشائعة يومذاك ، وهكذا كان التشيع اول فكرة ولجت يقينه فتقبلها قبولاً حسناً واستحكمت في قلبه فكان حاله معها حال الشاعر

القائل :

أتاني هواها قبل أن اعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وما ان اعتنق مهيار الاسلام حتى رُهِيَ واختال طرباً وسروراً وردد ذلك في شعره مشيراً الى بعض الذين كانوا يدفعونه الى ترك المجوسية واعتناق الاسلام كالكافي الأوحد الذي يقول فيه :

هو المنقذي من شرك قومي وباعثي

على الرشد ان اصفي هواي محمداً

وتارك بيت النار يبكي شراره

عليَّ دماً أن صار بيتي مسجداً

والغريب ان مهيار في ديوانه الضخم لا يشير أبداً الى كون الشريف قد دفعه الى اعتناق الاسلام ، وكل ما في الديوان مما يتعلق بالشريف لا يعدو كونه اكباراً واجلالاً لرجل عالم عظيم .

ومهما يكن من أمر فإن مهيار قد أسلم على يده وقد سر بهذا الاسلام سروراً عظيماً ، حتى أن بيت النار بات يبكي عليه دماً بعد ان غادر شرك قومه وأصبح بيته مسجداً . وفي عام ٣٩٤ هـ أي في السنة التي اعتنق فيها مهيار الاسلام نظم قصيدة تدل دلالة واضحة على هذه الغبطة العظيمة التي شعر بها بانتقاله من دين الكفر الى دين الايمان . قال مخاطباً قومه :

تبدَّلتُ من ناركم ربَّها وخبث مواقدها الخلد طيبا

افيئوا فقد وعد الله في ضلالة مثلكم ان يتوبا

والا هلموا أباهيكم فمن قام والفخر قام المصيبا
امثل محمد المصطفى اذا الحكم وليتموه لبيبا

وعلى هذا فاننا نحس عبطة المنتقل من الشرك الى الايمان وأنعم بها من غبطة ليست بسهلة المنال ، وان كان بعض المعاصرين (كأبي القاسم بن برهان) كانوا يأخذون عليه اندفاعه في حب آل علي وافراطه في سب الصحابة حتى قال له : « يا مهيار انتقلت باسلامك في النار من زاوية الى زاوية. قال وكيف ذلك! قال لانك كنت مجوسياً فأسلمت فصرت تسب الصحابة . ويرى اسماعيل حسين في كتابه « مهيار الديلمي » أن « انتقاله من المجوسية الى الاسلام امر طبيعي لما كان عليه من اضطراب النفسية فإنه في تحوله من دين الى دين ما كان عليه ان يقطع شوطاً بعيداً، لان الشقة بين مجوسي شيعي يذم الصحابة وينتقص من العرب ، وبين مسلم شيعي شعوبي ضيقة لا تحتاج في اجتيازها الا الى خطوة قصيرة [1] » وقد يكون اسماعيل حسين على بعض الحق اذا اخذنا بعين الاعتبار ما كان يرمي اليه المجوس من وراء التشيع، اي النيل من هيبة الخلافة ومحاولة الاطاحة بها، الا ان مهيار كان مؤمناً حسن الايمان كما سنرى، وكان يفرط في تعصبه لآل علي .

أسلم مهيار اذن بعد ان كان التشيع قد تملك شغاف قلبه وخالط اللحم والدم في أعماقه . فجند نفسه جندياً مينا ومدافعاً نشيطاً عن الدعوة العلوية . وكان كمن سبقه من ادباء الشيعة

---

١ - اسماعيل حسين ـ ص . ١٢

وشعرائها ، كثير التألم بكاء شكاء يندب السادة المجدلين وينال ممن نكل بهم وآذاهم ، ويعلن على الملأ مذهبه الفكري دونما خوف او وجل . وقد آتته الظروف فرصة سعيدة يومذاك ، فكان أولو الأمر ومن في يدهم السلطة من الشيعة ، ومن ابناء جلدته ايضاً ، فما كان اذن ليشعر بملاحقة او اضطهاد ليدين بالتقية شأن اسلافه من شعراء الشيعة كدعبل وكثيّر عزّة ، والسيد الحميري وسواهم . فهؤلاء وجدوا في احوال وظروف قاهرة وسلطان الدولة قوي الشكيمة ، فقضى بعضهم (دعبل) اكثر عمره شريداً طريداً .

ومهيار كأكثر الشيعة يعتبر ان الحق لعلي بالخلافة . ويؤمن ايماناً كلياً ان النبي قد اوصى له بها ، وهو لذلك لا يمتنع عن تسمية علي « بالوصي » فيقول مثلا يخاطباً الحسين بن علي .

يا ابن الوصي اخي النبيّ عنت لي الدنيا وصار الحظ ملك يميني

ويقول في موضع آخر في رثاء الشيخ المفيد ابي عبدالله بن النعمان الفقيه :

ما كنت احسبُ والزمان مقاتلي يرمي ويخطىء ان يومك مقتلي
يومٌ اطلّ بغلّة لا يشتفي منها الهدى وبغمّة لا تنجلي
فكأنّهُ يومُ « الوصي » مدافعاً عن حقه بعد « النبي المرسل »

وهذه التسمية « الوصي » راجت بين فئة من الشيعة واكثر ما رددها الشيعة الفرس لما أثر عنهم من نظام الوراثة في الحكم والوصاية في الملك . اذن لا مجال للجدل من ان علياً هو الخليفة الأول لمحمد ، وكل من تولى الخلافة قبله فهو مغتصب يستحق الشتم واللعن ، وهذا ما فعله مهيار ، وهو في شتمه الخلفاء لا يشعر بندم ما بل

يشعر كأنه يرضي ضميره ويدلل على قوة ايمانه، فهو ساعة يهاجم الصحابة الذين اختلفوا لتقرير أمر خلافة النبي بعد وفاتـــه، انما يهاجمهم لاعتقاده بأن الأمر لعلي . وهذا بعض ما قاله :

هذي قضايا رسول الله مُهمَلةٌ غدراً وشملُ رسول الله منصدعُ

والناس للعهدِ ما لاقوا وما قربوا
وللخيانة ما غـابوا وما شسعوا

وآله وهم آل الالـه وهم رعاة ذا الدين ضيموا بعده ووُزعوا
وبين مقتنصٍ بالمكر يخدعه عن آجل عاجلٌ حلوٌ فينخدعُ
وقائل لي: « عليٌّ » كان وارثه بالنص منه، فهل اعطوه ام منعوا
فقلت كانت هناتٌ لستُ اذكرها يجزي بها الله اقواماً بما صنعوا
أبلغ رجالاً اذا سمّيتهم عرفوا بهم وجوهٌ من الشحناء تمتقع
توافقوا وقناة الدين مائـلةٌ فحين قامت تلاحوا فيه واقترعوا
أطاع اولهم في الغدر ثانيهم وجاء ثالثهم يقفو ويتبـع
بأي حكم بنوه يتبعونكم وفخركم أنكم صحبٌ له تبعُ
وكيف ضاقت على الأهلين تربته وللاجانب من جنبيه مضطجعُ

وفيمَ صيّرتم الاجمـاع حجّتكم
والناس ما اتفقوا طوعاً ولا اجتمعوا

أمرُ « علي » بعيدٌ عن مشورته
مستكرهٌ فيه « والعباس » يمتنع

وتدّعيه قريش بالقرابة والـ انصار لا رفع فيه ولا وضعُ
فأي خلفٍ كخلفٍ كان بينكمُ لولا تلفّقُ اخبار وتُصطنعُ

واساً لهم يوم خم بعدما عقدوا له الولاية لِمْ خانوا ولِمْ خلعوا[1]
إنكارهم يا امير المؤمنين لها بعد اعترافهم عار به اذرعوا
ونكثهم بك ليلاً عن وصيتهم شرع لعمرك ما ان بعده شرعوا
تركت امراً ولو طالبته لدرت معاطس راغمته كيف تجتدع
صبرت تحفظ امر الله ما اطرحوا ذباً عن الدين فاستيقظت إذ هجعوا

فمهيار في هذه القصيدة شديد الحملة على الصحابة لا لشيء إلا لأنه يعتقد أنهم غاصبون لحق علي ، وهو على ايمان كلي ، أن علياً هو الوارث الشرعي للرسول لقرابته منه ، ثم ان الرسول قد أوصى لعلي بالنص :

وقائل لي علي كان وارثه بالنص منه فهل أعطوه ام منعوا

ويتجلى كرهه للخلفاء الذين ولوا الخلافة قبل علي في قوله :

أباحسن ان انكروا الحق واضحاً على انه والله انكار عارف
أخصك بالتفضيل الا لعلمه بعجزهم عن بعض تلك المواقف
نوى الغدر اقوام فخانوك بعده وما آنف في الغدر الا كسالف

ولا يقف مهيار عند هذا الحد بل يعتبر ان علياً كان بالنسبة للرسول ما كان هرون من موسى ، وفي ذلك اشارة الى الآية الكريمة في سورة طه . الآية (٢٩—٣٠) (واجعل لي وزيراً من اهلي * هرون اخي اشدد به ازري واشركه في امري*) فقال يخاطب العلويين :

---

١ — خم : هو غدير خم بين مكة والمدينة . ميل ان النبي صلى الله عليه وسلم خاطب الناس عنده فقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » .

K.3/10

وابوكم المُفْضِي اليه مَجدُكم ما كان من موسى الى هرون

وينسب الى الرسول، حسب اعتقاد السواد الأعظم من الشيعة ان الرسول اوصى بالخلافة لعلي بالحديث وبالنص، فقال :

وقد جعل الأمر من بعده لحيدرَ[1] في الخبر المسند

الخلافة اذن امر مفروغ منه، فهي لعلي، فكيف يجوز للخلفاء الراشدين أن يأخذوها منه، يزعمون ان الأمة اجمعت على ذلك، أي أن المجتمعين في سقيفة بني ساعدة على الأصح، حيث انبثقت فكرة الخلافة، قد اجمعوا، على مبايعة ابي بكر الصديق واختياره خليفة المسلمين. ولكن مهيار وهو الشيعي لا يؤمن بالاجماع ما لم يكن مقرراً برأي الامام، وهذا ما تؤمن به الشيعة. فرأي الايام ضروري في كل إجماع وإلا لا قيمة للاجماع اذا اتفق الناس وعارض الامام.

والامام هنا طبعاً هو علي بن ابي طالب الذي كان منهمكاً في غسل الرسول وتكفينه. ولذلك لجأ مهيار الى الهزء بمثل هذا الاجماع والسخر منه. ونحن نعلم ان الاجماع اساس من اسس الفقه عند السنة. وقد ورد في الحديث المأثور! « لا تجمع امتي على خطأ ». ولكن الشيعة حتمت رأي الامام في الاجماع. ولهذا نسمع مهيار يقول :

وفيمَ صيَّرتم الاجماع حجتكم

والناس ما اتفقوا طوعاً ولا اجتمعوا

او يقول في موضع آخر :

---

١ — حيدر : من اسماء الامام علي (رضه)

— وكيف ضمّوا امرهم واجتمعوا

فاستورروا الرأي وانت منعزلُ

— ويجتمعون على رغمهم ويُنْبِيكَ سعد بما اشكلا[1]

ومما تجدر الاشارة اليه ، ان الجدل وعلم الكلام كانا رائجين في عصر مهيـار ، ثم ان المناظرات الكلاميـة ، كانت قائمة على قدم وساق بين السنة والشيعة وغير ذلـك من المذاهب ، ولا بد لهذه المناظرات من ثروة فكرية جبارة كي يستطيع المجادل قرع خصمه بالحجة الدامغـة . وعلى هـذا فإننا نرى مهيار يعي التاريخ في صدره ، وقد اختص بذاكرة غريبـة ، فكان يحفظ الأخبار طريفها وتالدها ، ويرددهـا في شعره . وعلى هذا اذا نظرنا الى طريقته في اظهار حق علي بالخلافة فإننا نراه يعود الى التاريخ الاسلامي مستقياً منه ذكر المعارك التي خاضها علي في سبيل توطيد اركان الدين والمآثر التي اختص بها علي دون سواه من سائر الصحابة والأعمال والتضحيات التي كان يمارسها علي في سبيل النبي محمد (ص) . فعلى هـذا لا تفوته معركة الجمل ولا صفين ولا خيبر ولا عمرو بن ود ولا مقتل الحسين ورهطـه في كربلاء . كل هذه الأعمال المجيدة والبطولات والمآسي التي حلت بآل البيت يذكرها مهيار بشعر يذوب رقة وعذوبة قال في قصيدة يضمنها الكثير من هذه اللمحات التاريخية :

يا « طالبين » اشتفى من دائه الـ

مجد الذي عـدم الدواء الشافيا

---

١ — يشير الى سعد بن عبادة زعيم الانصار وقد ابى ان يبايع ابا بكر وبقي على ذلك حتى مات .

بالضاربين قبابهم عرض الفـــلا
عقل الركائب ذاهباً او جاثيـــا
وهبِ الغديرَ ابوا عليـــه قبوله
نهباً ؟ فقل : عدوا سواه مساعيا
«بدراً» «واحداً» اختتهامن بعدها
و «حنين» وقاراً [1] بهن فصاليا
والصخرة الصماء اخفى تحتهـــا
ماء وغير يديه لم يكُ ساقيا
وتدبّروا حبر اليهود «جيبر»
وارضوا «مرحب» وهو خصم قاصيا [2]
وهل كان ذاك الحصن يرهب هادماً
أو كان ذاك الباب يفرّق داحيـــا [3]
وتفكروا في أمر «عمرو» اولاً وتفكروا في أمر «عمرو» ثانيا [4]
اسدان كانا من فرائس سيفه ولقلما هابا سواه مداليـــا

---

١ وقاراً شادّاً بلحاء ابداية للتسكن والشاعر يشير الى الامام علي عندما اخذ بلجام بغلة الرسول

٢ — مرحب اليهودي من حمير وهو الذي جمع سلاحه وخرج من حصن اليهود يرتجز
قد علمت خيبر اني مرحب شاكي السلاح بطل مجرّبُ

٣ الداحي الدافع ، ويشير الشاعر الى الامام على حين حمل باب حصن اليهود وصار يضرب به فلما ألقاه احتمع ثمانية من انصاره فلم يستطيعوا حمله .

٤ عمرو بن ود وعمرو بن معدي

وللخطب «صفين» أجلُ وعندك الـ خبرُ اليقينُ اذا سألت معاويا
لم يعتصم بالمكر إلا عالماً أن ليس إن صدق الكريهة ناجيا

وهكذا يتجلى لنا مهيار الشاعر المؤرخ ان صح القول . ولعل أبلغ ابياته وأشدها سخرية قوله في صفين : « وعندك الخبر اليقين إذا سألت معاويا » ففي هذا البيت تعريض ظاهر بالخدعة الكبرى التي لجأ اليها معاوية لينجو من بطش الامام فرفع المصاحف وجعلها حكماً بين المسلمين . وأكثر قصائد مهيار التي يأتي فيها على ذكر التشيع تعتمد على التاريخ والعاطفة في آن واحد من ذلك مثلاً قصيدته العينية في الجزء الثاني من الديوان صفحة ١٨٢ والتي أوردت قسماً منها في مستهل هذا الكلام . فهي تعتمد على التاريخ اعتماداً كلياً ، فتحدثنا عن السقيفة والغدر بعلي وحديث العباس مع علي وغدير خم .

ومهيار شديد الحب للحسين ، فهو الامام المفضل عنده ، فاذا ما تكلم عن مأساته جاء بالشعر المؤثر البليغ ، ولا عجب في ذلك فصادق الحب يملي صادق الكلم كما يقولون . ولعل حبه للحسين راجع الى المأساة الانسانية الفاجعة التي تعرض لها الحسين وآله والتي تفطرت لها قلوب الأعداء ، فكيف بالانصار المخلصين . ومنهم من يرد سبب حبه للحسين الى غير ذلك أيضاً متذرعين بأن الفرس بصورة عامة يشعرون برابطة النسب التي تربطهم بالحسين عن طريق المصاهرة ، زاعمين ان الحسين قد تزوج من «شهربانوه» ابنة يزدجرد التي جيء بها في سبي الى المدينة ، وتزوجها الحسين وفقاً لنظرية تقول : إن بنات الأشراف يجب ان يتزوجهن

الأشراف فبات العلويون يعتقدون أنهم وارثو آل ساسان عن طريق امهم هذه [1] . ومهما يكن من امر فإن قصائد مهيار في الحسين تزخر بالعاطفة الجياشة بالحزن والأسى شأن شاعري الشيعة الآخرين المبدعين: دعبل الخزاعي في قصيدته : « مدارس آيات » والشريف الرضي في قصيدته : « كربلاء .. » قال

مهيار يرثي الحسين وقتلى العلويين :

« بآل علي » صروفُ الزمان	بَسطْن لساني لذم الصروف
مصابي على بعد داري بهم	مصابُ الأليف بفقد الأليف
وليس صديقي غير الحزين	ليوم « الحسين » وغير الأسوف
هو الغصن كان كميناً فهبَّ	لدى « كربلاء » بريح عصوف
قتيلٌ به ثار غلُّ النفوس	كما نغر الجرح حك القروف [2]
بكل يدٍ امس قد بايعتهُ	وساقت له اليوم أيدي الحتوف
نسو جدّه عند عهد« قريب »	وتالده مع حق طريف
فطاروا له حاملين النفاق	بأجنحة غشّها في الخفيف
يعزُّ عليّ ارتقاءُ المنون	الى جبل منك عال منيف
ووجهك ذاك الاغرُّ التريبُ	ينشّرُ وهو على الشمس موفي [3]
وانت وإن دافعوك الامامُ	وكان ابوك برغم الانوف

١ — العلال : ص . ٥٥

٢ — نغر : أسال . قروف : جمع قرف وهو القشرة تعلو الجرح .

٣ التريب : المعفر بالتراب .

لمن آية الباب يوم اليهودِ ومن صاحبُ الجن يوم الخسيفِ[1]

ومن جمع الدين في يوم «بدرٍ» «وأحد» بتفريق تلك الصفوفِ

وهدَّم في الله اصنامَهم برأى عيونٍ عليها عُكوفِ

أغير ابيك إمام الهدى ضياء الندى هزبر العزيفِ[2]

اتحملُ فقدك ذاك العظيمَ جوارحُ جسمي هذا الضعيفِ

كأن ضريحك زهرُ الربيع هبت عليه نسيمُ الخريفِ

احبكمُ ما سعى طائفٌ وحنَّت مطوقة في الهتوفِ

وإن كنت من « فارس » فالشـ ـريف معتلق وده بالشريفِ

---

١ – يشير الشاعر الى خروج علي رضي الله عنه يوم وقعة خيبر فلما دنا من الحصن ضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده فتناول علي بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فاجتمع ثمانية من أصحابه وحاولوا ان يقلبوا الباب فما استطاعوا .

الخسيف : البئر التي تحفر في صخر فلا ينقطع ماؤه لكثرته ، ويشير الشاعر بذلك الى ما يعتقده الشيعة من أن علياً كرم الله وجهه قاتل الجن وحاربهم ببئر ذات العلم عندما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية الى مكة حيث أصاب الناس عطش شديد وحر شديد فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل من رجل يمضي في نفر من المسلمين معهم القرب فيردون بئر ذات العلم ثم يعود ، يضمن له رسول الله الجنة ، ثم بعث رجلا من الصحابة ففزع من الجن فرجع ، ثم بعث آخر فذعر من الجن فرجع ثم أرسل علي بن أبي طالب فنزل البئر وملأ القرب بعد هول شديد .

٢ – العزيف : صوت الرمال إذا هبت عليها الرياح .

كثيرة هي القصائد التي يتفجع فيها مهيار على الحسين وأصحابه ويتألم ليوم قتلهم في كربلاء . ومن رائع قوله في رثاء الحسين :

ايا عاطشاً في مصرع لو شهدته   سقيتك فيه من دموعي الذوارف

ومن شعره الجميل في رثاء الحسين هذه الأبيات :

وشهيد «بالطف» ابكى السموات   وكادت له تزول الجبالُ
يا غليلي وقد حُرِّمَ الماء عليه   وهو الشراب الحلالُ
لم تنجُ الكهول ولا الشبا   ن زهد ولا نجا الاطفال

وقد أُقترح على مهيار وزن قصيدة في اول نظمه ، في آل البيت ، فنظم قصيدة ضمنها الأحداث التاريخية جميعها ، وهي في مجملها لاتخرج عما اوردناه من تشك وألم ورثاء لآل البيت واستنكار لاستئثار ابي بكر وعمر وعثمان بالخلافة دون علي ، ثم يصب جام غضبه على معاوية بن ابي سفيان الذي :

قلّبها ارد شيرية   فخرّق فيها بما اشكلا

قال في هذه القصيدة :

وهذا الكتاب واعجازُه   على من ؟ وفي بيت من ؟ نُزّلا
أألله يا قوم يقضي « النبي »   مطاعاً فيُعصى وما غسّلا
ويوصي فنخرُص دعوى عليه   في تركه دينه مهمّلا
ويجتمعون على زعمهم   وينبيك « سعد » بما اشكلا
فيُعقب اجماعهم ان يبيـ   ـت مفضولهم يقدُم الأفضلا
وان ينزعَ الأمر من اهله   لأن « علياً » له أهّلا
اضاليل ساقت مصاب « الحسين »   وما قبل ذاك وما قد تلا

« امية » لابسة عارهـــا وإن خفيّ الثأر أو حصّلا
فيوم «السقيفة» يا «ابن النبيّ» طرّق يومك في كربلا
لكم آل « ياسين » مدحي صفا وودي حلا وفؤادي خلا .
وأبرأ ممن يعاديكمُ فإن البراءة اصلُ الولا

ولقد كان مهيار يتصرف بهذه المعاني فيقلبها على سائر وجوهها فإذا بها معادة مكررة في ديوانه . وقد يقف القصائد الكاملة على مدح الامام علي وآله ، وهناك قصيدة لها قيمة خاصة أسوق بعض ما جاء فيها .

أشدد يداً بحب آل « أحمد » فإنه عقدة فوز لا تحلّ
هم وأبوهم شرفاً وأمهم أكرم من تحوي السماء وتظلّ
وبايعوك عن خداع ، كلهم باسط كف تحتها قلب نغلّ
« والاموي » ما له اضركم وخصّ قوما بالعطاء والنفل
وردها عجماء « كسروية » يضاع فيها الدين حفظا للدول
الصنو انت والوصي دونهم ووارث العلم وصاحبُ الرسل

هذه مختارات مما جاء في القصيدة وهي طويلة تبلغ المائة والعشرة من الابيات . والشيء الخاص الذي تحتويه والذي يجعل لها قيمة هامة هو إشارة مهيار الى قدم الصلة بينه وبين آل علي ، ويردها الى جذور قديمة يرجعها الى سلمان الفارسي . وسلمان هذا هو الصحابي المشهور الذي شايع علياً منذ الوهلة الأولى لوفاة الرسول . بل يقال ، انه كان يشايعه في حياة الرسول ايضاً ، وكان يظهر الرضى بكل عمل يقوم به الامام . وسلمان هذا من اصل فارسي

واكثر ما ظهر دوره ، وبرزت خدماته للاسلام والمسلمين [1] يوم وقعة الخندق . وقد اشار يومـذاك على المسلمين حفر خندق حول المدينة يقيهم شر المشركين ويصد هجماتهـم . وقد افاد الرسول من خبرته الحربيـة كما انه قد حسن اسلامه وتفانى في خدمة الدين ونبيه . الى هذا يشير مهيار بقوله :

علاقـة لي بكم سابقة لجد سلمان اليكم تتصل

وهذه العلاقة التي يفخر بهـا مهيار ، رددها في كثـير من المواضع متذرعاً بها على قدم الصلة بين الشيعة والفرس . فهو لذلك غير ملام ان اسرف في حب آل البيت ، واخلص لهم الولاء رغم كونهم من غير جنسه . ولكن الشريف كما يقول يحن الى التشريف والكريم بطبعه يجد الكرام الأبعدين ادانيا .

وان كنت من فارس فالشر يف معتلق وده بالشريف

ويقول في موضع آخر :

هذا لهم والقوم لا قومي هم جنساً وعقر ديارهم لادريا
الا المحبة فالكريم بطبعه يجد الكرام الأبعدين ادانيا

وهو لفرط ايمانـه واخلاصه لآل البيت يرى ان له الحق بشفاعتهم لما يربطه بهم من نسب وولاء عن طريق سلمان الفارسي أيضاً . فإذا ما شفع الآباء لأبنائهم فإن شفاعة سلمان تناله لكونه شيعياً فارسياً . وهذا ما يقوله في بعض قصائده :

سلمان فيها شفيعي وهو منك اذا ال اباء عندك في ابنائهم شفعوا

وهكذا يمضي مهيار معتبراً نفسه غير دخيل على الاسلام ،

---

١ ـ محمد حسين هيكل : حياة محمد . ص ٢٩٩

وغير حديث العهد بحب آل البيت .

لقد شاهدنا في معرض الحديث عن الشعوبية ان بعض الفرس كان يعتنق الدين الاسلامي ، ويقول بالتشيع لغاية مبطنة تهدف الى قلب نظام الحكم . وكثيراً ما ثار هؤلاء وحاولوا المروق على سلطان الخلافة. ومن تلك الثورات المشهورة ثورة بابك الخرمي، وثورة الافشين . ومن الشعراء المشهورين بفتور الناحية الدينية عندهم بشار بن برد وهو القائل :

ابليس خير من ابيكم آدم فتبصروا يا معشر الفجار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

اما مهيار فقد كان ثابت الايمان مطمئن النفس للتظلل براية الاسلام ، والتجلبب بحب آل علي . ويعتبر انه باعتناقه الاسلام اولاً والتشيع ثانياً قد فاق بني قومه من الملوك شرفاً واصالة ، وهو لا ينفك يردد هذه الفكرة في اماكن كثيرة من شعره وها هو يخاطب آل علي :

تضمي من طرفي في حبكم موده ساخت ودين مقتبَل
فضلت آبائي الملوك بكم فضيلة الاسلام اسلاف الملل

وعلاوة على هذا فإنه لا يتخذ الدين وسيلة للوصول بل يفخر به ويعتقد أنه خير دين. ففي احدى قصائده الشعوبية جاء قوله :

قد قبستُ المجد من خير اب وقبست الدين من خير نبي
وضممت الفخرَ من اطرافه سؤدد الفرس ودين العَربِ

ولقد مر بنا ذكر سروره عندما اعتنق الدين الاسلامي ، كيف انه مضى يتغنى بدينه الجديد ، وبخلاصه من المجوسية .

فمثل هذا الحماس ينبغي ان يكون مرتكزاً الى اسس وطيدة ثابتة الاركان . وهذا ما يردده مهيار دائماً ساعة يخاطب آل البيت .

وقيكم ودادي وديني معاً   وان كان في « فارس » مولدي
خصمتُ ضلالي بكم فاهتديتُ   ولولا كمُ لم اكن اهتـــدي
وجردتموني وقد كنتُ في   يد الشرك كالصارم المغمد

وهكذا يتبين لنا ان مهيار كان ثابت الايمان راسخ العقيدة ، ولعل السبب في ذلك يعود الى معاشرته للشريف الرضي مدة طويلة . وكان الشريف يومذاك ضمانة للاخلاق والصفات الحميدة ، فقد اتصف بالأنفة والفروسية ، وشرف الاصل ، وكبر النفس ، مما جعل له مكانة سامية في نفس شاعرنا ، فكان من الطبيعي بعد ان اعتنق مذهبه ان يتمكن هذا المذهب في نفسه . ويتجلى إكبار مهيار للشريف في مراثيه فإنها بحق من خير الشعر الرثائي . والرثاء لا يكون صادقاً الا اذا كان صادراً عن عاطفة صادقة تجيش بها نفس قد تمكن منها حب الفقيد .

وعلى هذا فان قيمة الرأي القائل بأن مهيار تشيع مسايرة لأولي الأمر من السلاطين والملوك تقرباً وتزلفاً وطمعاً في مركز او عطاء ، اقول ان قيمة هذا الرأي تضعف كثيراً بعد الذي رأيناه من صدق ايمانه وتفانيه في اخلاصه لآل البيت .

وأخلص أخيراً الى القول ان مهيار قد أفاد كثيراً من التشيع كما انه قد أفاد التشيع بقصائده الجميلة . افاد من التشيع بأنه وسع أفقه واضطر الى الاطلاع على ملابسات الخلافة وما أحاط

بانتقالها من اسرار وخفايا ليقارع أخصامه من شعراء السنة الحجة بالحجة ، كما ان التشيع قد أضفى على شعره مسحة من الكآبة التي اتصف بها الادب الشيعي . هذه الكآبة التي تقرب الشعر من النفس فيتأثر القارىء لهؤلاء المضطهدين من آل البيت الذين ذهبوا ضحايا بريئة على مذابح السياسة الغاشمة . كما ان تشيعه جعله يعف في ألفاظه ، كما كان يفعل استاذه الشريف او كما كان يفعل سائر ادباء الشيعة « وما كان يسف كسواه من الشعراء ». وتشيعه ساعده في إظهار شعوبيته ، اذ انه تحت ستار الدفاع عن آل البيت كان ينال من العرب أجمعين ، ويتهمهم بالغدر والخيانة ونكران الجميل لأنهم أهملوا وصايا رسول الله وابتعدوا عن ابناء بنته .

وفي الختام لا بد من القول ان مهيار كان شاعر الشيعة دون منازع في مطلع القرن الخامس الهجري اذ بقي وحده في الساح بعد وفاة الشريف الرضي ، بقي وحده يجالد شعراء السنة كالسكري وسواه ولكن حبه لآل علي وهم من العرب ما كان ليجعل لحب العرب سبيلاً الى قلبه ، فظل ناقماً ساخطاً ينظر اليهم من عل ويفخر بأسلافه من الملوك الأكاسرة . ولعله في ذلك كان يؤمن ان العرب هم الذين سببوا كارثة اهل البيت فينبغي الابتعاد عنهم وتجنبهم والنيل منهم . وان الفرس هم الذين ازروا آل البيت وعاضدوهم فينبغي ان يخص بحبه الفرس وآل البيت ومن هنا كانت شعوبيته ، المتطرفة ، فهو لم يغادر شائنة ولا شائبة الا وألصقها بالعرب كما سنرى .

مهيار شاعر الشعوبية

تعريف عام :

روح المنافسة متأصلة في العربي . ولا سيما يوم كان العرب في جاهليتهم شيتاً يحاول كل واحدٍ منهم الفخر بما تيه راغباً في اذلال اعدائه ومنافسيه فلا يتورع عن الفخر عليهم ، ولا يحجم عن هجائهم اذا اقتضى الأمر . ودام هذا التنافس زمناً حتى افاء الله على الجزيرة ظل الاسلام ، فوحد بينهم ولأم شملهم بعد تصدع وأمات احقاد الجاهلية ومفاخراتها . فبعد ان كانت القحطانية تنال من اعراض العدنانية ، وبعد ان كانت العدنانية تكيل للقحطانية بكيلها وتزيد ، وبعد ان كانت القبائل القحطانية تتنافس فيما بينها ، وكذلك تفعل العدنانية ؛ بعد هذه الفوضى انطلق العرب وحدة مقدامة تحت راية الاسلام فزلزلوا إيوان كسرى ودكوا عرش قيصر ، ودانت لهم الشعوب الاعجمية كلها . وكانت الكارثة مؤلمة موجعة ، ولا سيما للفرس الذين كانو يرتون اردراء العرب والنيل منهم كابراً عن كابر . والذين كانوا يتوهمون انهم سلالة الآلهة ونسل الاكاسرة ، ويبيبو مدنية

وحضارة فكيف بهم يخضعون لقوم جفاة عتاة خرجوا من بطن البادية حفاة عراة فأسقط في يدهم وبيتوا الحقد في نفوسهم وسكتوا على مضض .

قلت ان العرب مفطورون على حب المفاخرة بالاحساب والانساب، وعلى هذا فإنهم لم يحجموا عن التطاول والفخر بمآثرهم وازدراء هذه الشعوب التي خضعت ذليلة صاغرة ، والتي اعتقت بعد أسر ، فلقبت ازدراء واحتقاراً « بالموالي » . واسكرت العرب نشوة الظفر ، ولا سيما في فجر الامبراطورية العربية وفي شرخ شبابها ، يوم تولى الحكم الامويون ، فأذكوا العنصرية العربية ، واحتقروا كل ما سواها ، وازدروا كل ما هو اعجمي ، وصح قول الجاحظ « دولة بني مروان عربية اعرابية » . ولقد بقيت دولة بني امية مدة من الزمن قوية الشكيمة . فكلما حاول الموالي ان يثوروا على الغبن الذي ألحق بهم ، خُضدت شوكتهم بشدة فذلوا واستكانوا . ولم يجدوا بدأ من اعتناق الاسلام علهم يتساوون عن طريقه بسائر الشعوب الاسلامية ، وقد أشار القرآن الى ذلك صراحة في الآية الكريمة : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وجاء كذلك في الحديث أن : « لافضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى » . غير انهم لم يظفروا بما املوا . وظل الأمويون على ازدرائهم للموالي ، فلجأ هؤلاء ساعتئذٍ الى نوع من الدسائس والمؤآمرات وفترت حمية الدين في نفوسهم وإن يكن منهم نفر قد حسن اسلامهم . وبات للشعوبية مظهران

هدامان : المظهر الشعوبي السياسي ، والمظهر الشعوبي الديني .
اما الشعوبية السياسية ، فإنها كانت تهدف الى تقويض العرش الأموى ، أو قل إزالة النفوذ العربي وإعادة النفوذ الفـارسي .
وأما الشعوبيه الدينية فقد كانت تهدف إلى إزالة الدين الإسلامي ليحل الدين المجوسي مكانه ، وبالتالي إعاده النفوذ الفـارسي أيضاً . وقد نبغ في هؤلاء الشعوبيين شعراء وكتـاب اشتهروا بجرأتهم ومجاهرتهم بالفخر بأصلهم الكسروي الشريف . مـن هؤلاء اسماعيل بن يسار ، فقد وفد يوماً على هشام بن عبد الملك وأنشده [١] .

إني وجدّك ما عودي بذي خورٍ
عند الحفاظ ولا حوضي بمهدومِ
أصلي كريمٌ ومجدي لا يُقاس به
ولي لسان كحد السيف مسمومِ
أحمي به مجد أقوامٍ ذوي حسب
من كل قرم بتاج الملك معمومِ
جحاجحٍ سادةٍ بلجٍ مرازبةٍ جردٍ عتاق مساميحٍ مطاعيمِ [٢]
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً
والهرمزان لفخرٍ أو لتعظيمِ [٣]

---

١ ـ احمد امين : ضحى الاسلام : ج : ١ ، ط ١ ، ص : ٢٩
٢ ـ جحاجح : سادات كرام . بلج : ذوي معروف . مرازبة : رؤساء . جرد عتاق : جياد كرام
٣ ـ الهرمزان : كبير عظماء الفرس .

أسد الكتائب يوم الروع إن رحفوا
وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون في حلق الماذيّ سابغة مشى الضراغمة الاسد اللهاميم[1]
هناك إن تسألي تُنبي بأنّ لنا جرثومة قهرت عزّ الجراثيم[2]

فغضب هشام وقال : أعليّ تفتخر وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غطّوه في الماء ، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم امر باخراجه . ونفاه من وقته الى الحجاز .

وفخر بشار بأصله الشريف شهير في تاريخ الأدب فهو من «قريش العجم» كما يزعم .

ألا أيها السائلي جاهداً ليعرفني ، أنا أنفُ الكرَمْ
نمَتْ في الكرام بني عامر فروعي ، واصلي : قريش العجمْ

ولبشار أقوال اخرى كثيرة يأنف فيها من الانتساب الى العرب ويعتز بأصله الفارسي ، وكذلك القول في أبي نواس القائل :

وما شرّفتني كُنيَةٌ عربيةٌ ولا اكسبَتني لا ثناءَ ولافخرا

وهكذا نرى أن الشعوبية السياسبة أضحت واضحة المعالم بيّنة المناهج . فهي تهدف الى تقويض العرش العربي ، والدوافع الى ذلك كثيرة منها ما ذكر ، ويضاف الى ذلك : عدم السماح للموالي بالزواج من الحرائر ، مع ان العرب لا يحجمون عن التسري بنساء الأعاجم . وفرض الجزية على هؤلاء الأعاجم رغم اعتناقهم

---

١ ـ الماذيّ : الدروع البيضاء : سابغة : طويلة . اللهاميم : السابقون .
٢ ـ جرثومة : اصل .

الإسلام مع ان الإسلام كان يحرم ذلك .

وبلغ من احتقار العرب لهؤلاء الموالي ، ان العربي اذا كان يحمل بيده غرضاً ما وصدف أن لقي في طريقه مولىً وشاء أن يحمل المولى له أغراضه فعلى المولى ان يطيع وأن يحمل الأغراض ويوصلها الى منزل ذلك العربي . ومنها أيضاً حرمان الموالي من مناصب الدولة ، وحرمانهم من الارث ... الى غير ذلك من الاعمال التي تثير الضغينة والحقد [1] . فكان من الطبيعي أن يلجأ هؤلاء الموالي الى اعداء الامويين ، وكانوا يتمثلون يومذاك بالهاشميين أو بالعباسيين على الأخص . وهكذا فقد لقيت دعوة العباسيين حظوة واسعة في بلاد فارس ، أشعر بها العامل الأموي« نصر بن سيار » أسياده ، ولكن دولتهم كانت مولية فلم يأبهوا لها . وتعاظم أمر هذه الدعوة ، حتى إذا انست فرصة سانحة انقضت علىالدولة الأموية بقيادة زعيمها أبي مسلم الخراساني وأبادتها وطمست معالمها .

وعندما قامت الدولة العباسية شعر هؤلاء الموالي بدالة على أولي الامر فيها ، لا سيما وقد كان لهم اليد الطولى في توطيد أركانها فبدأت افكارهم تظهر سافرة وبدآوا يطمحون إلى المناصب العالية . ثم ان الخلفاء أنفسهم كانوا في أكثرهم من ابناء السراري [2] ، فكانوا يشعرون بالعطف نحو خؤولتهم ، فلا يشددون الرقابة على اقوالهم ولا سيما إذا كانت لا تهدد مباشرة

---

١ ـ أحمد أمين : ضحى الاسلام : ج : ١ ، ط : ١ ، ص : ٣٨
٢ ـ احمد امين : المرجع نفسه .

عرش الخلافة . واحتدم النقاش بين الموالي والعرب ، كل يحاول إظهار مآتيه ومثالب خصمه . وكان الشعوبيون ينسبون الى العرب [1] جفاف العيش وشظف المعيشة ، وتأخرهم في مضمار المدنية وجهلهم لأنواع الأسلحة وسرج الخيل ، وأخذوا عليهم ايضاً استعمال العصا أو المخصرة في اثناء الخطابة. وعابوهم بالفخر بالخطابة وادعاء الكرم والوفاء بالرهينـــة . وجردوهم من كل مأثرة قائلين : إن كانوا يفخرون بالنبي العربي ، فسائر الأنبياء من غير العرب . وإن كانوا يفخـرون بالاسلام ، فالاسلام دين الناس قاطبة ، يتساوى فيه العربي والاعجمي ، بل قد يفوق الاعجمي العربي بالتقوى . ويفخرون بالأنساب . وقد كانوا في جاهليتهم يسبون نساء بعض . وكانوا يعملون بمبـــدأ شيوعية المرأة ، فكيف يعرف أحدهم أباه أم انهم يفخرون بالملـك ، وأين ملكهم من ملك كسرى وقيصر والأسكندر وسليمان ابن داود . ولم يقتصر الامر بهم عند هذا الحد ، بـــل ذهبوا الى مفاخرتهم ، والفخر عليهم ، كأن لقبوهم ببني اللخناء . واللخناء هي الجارية المنتنة الرائحة . ذلك أنهم زعموا ان العرب هم من ولد اسماعيل بن ابراهيم من جاريته هاجر وانهـــم هم « بنو الاحرار » لأنهم من ولد اسحق بن ابراهيم من زوجتـه الحرة سارة . واحتجوا بالآيه « إنا خلقناكم شعوباً ... » ان الشعوب أكبر وأكرم عند الله لانه قدمها في الكتاب على القبائـل

---

[1] ــ الفلال : ص ٣٧ وما بعدها ـ أحمد أمين : ضحى الاسلام . ج : ١ ، ص : ٥٣

والشعوب هم الفرس والقبائل هي العرب . ثم اخذوا يفخرون بمآثر ملوكهم وعظمتهم ، ولسان حالهم ما قال قائلهم :

فلست تبارك إيوانَ كسرى لتوضحَ أو لحوملَ فالدخولِ

أو قول المتوكلي وهو اكثر صراحة وجرأة :

أنا ابن الأكارم من آلَ جم وحائزُ إرثِ ملوكِ العجم
والذي بادَ من عِزّهم وعفّى عليه طوال القدم
وطالبُ أوتارهم جهرةً من نام عن حقه لمْ أَنَمْ
فقل لبني هاشم : أجمعين هلمّوا إلى الخلع قبل الندم
فعودوا إلى ارضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعي الغنم
فإني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام وحرفِ القلم

وهكذا بدأ مظهر الشعوبية السياسية واضحاً خطراً بالنسبة للخلافة العباسية . ولكنه قوي قوة هائلة ، حتى أن العرب لم يستطيعوا دفعه فيما بعد . فأودى بملكهم ، وأضحوا يخلعون وينصبون ساعه يشاء الأعاجم. ولقدشارك مهيار في هذه المعركة الكلامية مشاركة فعالة ، وكان لاذعاً موجعاً . وسنأتي على ذكر أقواله في موضعها .

هل سكت العرب حيال هذه الشتائم والتهم يوجهها لهم الشعوبيون ، أم انهم اصلوها ناراً حامية ؟ مما لا شك فيه أن العرب كانوا يقارعون الشعوبيين الحجة بالحجة . وأبلغ ما كانوا يحتجون به ، انهم أفضل شعوب الأرض ، ولغتهم افضل لغات الدنيا . وهي لسان أهل الجنة ، وانهم ما دانوا يوماً لدخيل ، بل

ظلوا معتزين باستقلالهم في الجاهلية والإسلام ، وعلى يدهم اخرج الله الأعاجم من الظلام إلى النور ، وانهم يحفظـــون انسابهم ، واتصفوا بالكرم والشجاعة والفصاحة . صفات لم يشاركهم فيها مشارك . ولم يعدموا شعراء يردون على شعراء الشعوبية ، فقـد قال : بديع الزمان الهمذاني ، وإن لم يكن اصيل النجـــار في العروبة ، يرد على احد شعراء الشعوبية :

تريد على مكارمنا دليـــلا   متى احتاجَ النهارُ الى دليلِ
ألسنا الضاربين جزىً عليكم   وإن الجزي اولى بالذليـــل
متى قرع المنـــابر فارسي   متى عرف الأغرّ من الحجولِ
متى علقت وأنت بها رعيم   أكفُّ الفرس اعراف الخيولِ
فأمجد من ابيـــك اذا انتسبنا   عراةً كالليـــوث وكالنصولِ

لقد كان الشعوبيون اذن يهدفـون قبل كل شيء الى تقويض الأمبراطورية العربية ، فسلكوا بالاضافة الى سبيل الشعوبية السياسية سبيل الشعوبية الدينية [1] وكثيرون هم الذين اعدموا بتهمة الزندقة بعد ان تطرفوا وافرطوا في اظهار كفرهم وهزئهم بالاسلام ، وتعاليمه .

وفي طليعة هؤلاء بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس ، وعبدالله بن المقفع وسواهم .. وغاية الشعوبيين في مروقهم على مبادىء الدين ادخال الشك في نفوس الناس ، فيفتر فيهم الشعور الديني ويتخلون عن خلفائهم ، فيسهل ساعتئـــذ تقويض دعائم الخلافة ، ونقل الملك الى البيت الكسروي . هـــذا الضرب من الشعوبية لم يشارك مهيار في اذكاء اواره بل كان من حسن اسلامهم

---

١ ـ دائرة المعارف الاسلامية مادة سعوبية

كما مر بنا وكما سنرى في شعره الشعوبي .

لقد كانت غايتنا فيما عرضناه من مبادىء التشيع والشعوبية -عرضاً سريعاً- الخلاص الى الكلام على تشيع مهيار وشعوبيته ، ومدى تأثيره بالمذاهب والآراء التي كانت شائعة متداولة في عصره ، وما كان دوره في ذلك الصراع .

٢ ـ مهيار شاعر الشعوبية

لقد أحب مهيار النبي وآله ولكنه ما أحب قوماً طلع منهم ذلك النبي أعني انه ما احب العرب قط . ولعل السبب في ذلك يعود قبل كل شيء الى إيمانه الراسخ الأكيد بأن الحق كل الحق بالخلافة لعلي : فكل من نازعه عروة قبصها فإنما هو معتد أثيم ، وحقت عليه اللعنة . ولهذا فقد جاء بصواعق لسانه يصبها على العرب كالسيل العرم . ويعزز هذا الزعم أن قوماً من ابناء جلدته الفرس قد تحمسوا للعرب وردوا على الشعوبية وقرعوا اخوانهم . ومن هؤلاء ابن قتيبة وبديع الزمان الهمذاني الذي اشرنا الى شعره الذي رد فيه على الشعوبيين . عامل العنصر إذن لم يكن وحده الدافع على تعصب مهيار ضد العرب ، لا سيما اذا عرفنا أن مهيار من أصل وضيع ، لا يضرب بأسبابه الى الدوحة الكسروية الشريفة كما يدعي فيفخر بآبائه الاكاسرة . أضف الى ذلك أنه ما كان ليطمع بالافاده المباشره من الحكم اذا ما انتقل من العرب الى الفرس . ولكن وجود البويهيين وسواهم من الفرس على رأس السلطة في بغداد قد أذكى في مهيار روح العصبية اذ

وجد نفسه في مأمن من التشفي والانتقام ، فأطلق العنان للسانه ينهش اعراض العرب . وما همه ما دامت السلطة في يد الفرس ، ولا أحب لدى هؤلاء من ان تمتهن كرامة العرب ويحقرون .

وهكذا بعد ان كان بشار يتحرج بعض الاحيان خشية من السلطة ، وكانت لا تزال في يد خلفاء أقوياء من العرب ، أخذ مهيار يرفع عقيرته عالياً دونما خوف أو وجل . وهكذا فإنه في مدحه الملوك والولاة والامراء والعمال ، وجلهم ، إن لم أقل كلهم ، من الفرس ، يضرب على وتر التفرقة بين العرب والعجم.

ولقد ألمعت الى التسمية التي كانت شائعة يومذاك : فالعرب هم بنو اللخناء ، والفرس هم بنو الأحرار . وهذا ما كان يردده مهيار . ففي قصيدة مدح بها وزير الوزراء عميد الدولة سعد بن عبد الرحيم .

دوحةُ مجد بَسَقتْ غصونُها   من حيث طاب وزكى قرارها

شقّ لها في « فارس » اماؤها   حُرّ التراب وهمْ احرارُها

وفي رثائه للصاحب ابي القاسم بن عبد الرحيم ، وهو من الفرس . قال مشيراً الى ان الفرس وهم الاحرار قد اصبحوا كالعبيد بعد وفاة أبي القاسم، وآن الأوان للعرب لكي يفاخروهم ويتيهوا عليهم .

فاليوم لا أبت الصغار ولا اعترّت

إلا عبيداً فارسُ الاحرارُ

وتطأطأت ذلاً فطالت ما اشتهت

شرفاً عليها « يعربُ » ونزارُ

وقد تمر به فترات يعترف فيها للعرب ببعض الفضل، ولكنه فضل تحلى به القرس ، ودونه فضل العرب .فاذا ما ذكر الكرم من مآثر العرب ، فإن الفرس هم الاحرار دائماً وابداً . فقد جاء في احدى مدائحه لابى المعالي بن عبد الرحيم قوله :

ومغامرون اذا الكما ة تواكلت أغمارها

عربُ الأكفّ تَمتَنْهُمْ من فارس أحرارها

وقد يعجب المرء اذا ما علم أن جميع ممدوحي مهيار هم من الفرس تقريباً ، ما خلا قلة من آل البيت. وهو اذا ما ذكر اهل البيت فإنه دائماً يصفهم بالشرف ليخلص فيما بعد الى إضفاء صفة الشرف على نفسه مستنداً الى مجد الاكاسرة وشرفهم . وقد مر بنا في باب مهيار شاعر الشيعة بعض الابيات التي تؤيد ما ذهبنا اليه هنا . وأرى من المفيد ان اذكر ببعضها تلك الابيات تدليلاً على ايمان الشاعر بشرفه وكرم اجداده. جاء في بعض مراثيه لآل البيت قوله :

احبكم ما سعى طائف وحنت مطوقة في الهتوف

وان كنت من « فارس » فالشريف معتلق حبه في الشريف .

وفي مرثية اخرى يقول :

هذا لهم ، والقوم لا قومي هم

جنساً وعفر ديارهم لا داريا

الا المحبة ، فالكريم بطبعه

يجدُ الكرامَ الأبعدين ادانيا

وهكذا نتبين ان فكرة الاستعلاء الكسروي متأصلة في نفس

الشاعر فهو يسعى دائباً لإظهار رفعة بني قومه وذل العرب وانحطاطهم اذا ما قيسوا بالفرس . وأقواله فيهم مشتتة في سائر انحاء الديوان . فإذا ما استثنينا مدائحه التي وقفت عليهم ، وأحصينا الأبيات التي تشير صراحة الى رفعة الفرس ووضاعة العرب ، وفخر الشاعر ببني قومه ، اذا ما فعلنا ذلك فإننا نجد هذه الأبيات تكثر كثرة فاحشة موزعة في سائر انحاء الديوان وهي تدل دلالة واضحة كافية على ما رمى إليه الشاعر . فهو عندما مدح أبا الوفاء كامل بن مهدي خاطبه مبيناً له شرف اصله وامجاد قومه :

أقحطت أوجه البلاد ومن نحو ... لك للخصب روضة وغدير

فإلى بابك الحوائج تحدو ... ولك العير في العلا والنفير

عادة من ورائها شافع النفس ... وأصل بفرعه منصور

واكتساب اعانه شرف الميراث ... والمجد اول واخير

ويميناً لمن تمد بأعراقك في ... الفخر ان يسود جدير

دوحة من ثمارها انت والمغرس ... منها «بهرام» او «اردشير»

خيرما تربة على الأرض لم يشعب ... على اللؤم طينها المفطور

طاب صلصال عيصها وبريّا ... ها ثرى ماجد وماء طهور

قومك الغالبون عزاً وهم قو ... مي على الأرض وهي ماء يمور [1]

ركبوا الدهر وهو بعد فتي ... جذع وهو قارح مقرور [2]

ملكوا الناس وما في النا ... س الا مستعبد مأمور

---

١ — يمور : يموج ويضطرب ،

٢ — الجذع : الفتى . القارح : المسن . المقرور : الساكن ، الثابت .

وهكذا نرى الشاعر يمجد بني قومه ويسير بمفاخرهم صعداً نحو العلاء ولا ينسى أن يشير الا انه يشاركهم هـذا المجد الأثيل :

أي مجد يضمنا وفخار يوم أنسابنا الله تصيرُ

ولعل البيت الذي يقرع العرب به في هذه القصيدة هو قوله :

ان يَفُتْنا الخطيب والمنبرُ المنصو ب فالتاج حظنا والسريرُ

ولقد شاهدنا ما كان يدور من منـافسات حول الخطابـة والبلاغة ، وما أخذ الفرس على العرب في هذا الميدان ، حتى وضعت كتب في هذا الباب منها : كتـاب العصا . اشارة الى الخطيب العربي الذي كان يقف على المنبر، ويأخذ مخصرته بيده، فيخطب في الناس مشيراً بهذه المخصرة . وكثيراً ما أدل العرب على غيرهم من الأمم بانهم اختصوا دون سواهم بالخطابة والفصاحة . ولكن مهيار لا يدع فرحهم يأخذ مداه بل يجعل منهـا مثلبة ، فأين هي من التاج والسرير أي من نظام الحكم الفارسي ، ويكمل الشاعر فخره قائلاً :

حسبُنا أن تعـلم الملكُ مِنّا والسياساتُ منه والتدبيرُ

وكفيناه أمر رستم في الحـر ب اذا عُدّدَ الرجال الذكورُ

والذي قد سقى من الدم ذو الأكتاف حتى روّى الثرى سابورُ [1]

ولدوا منك كوكباً ضوءه السار ي دليلٌ عليهم ونـذيرُ

---

[1] ـ ذو الأكتاف : ملك من ملوك الفرس واسمه سابور بن هومز وسمي بذي الاكتاف ـ في بعض ما قيل ـ لخروج قوم من العرب عليه فسار اليهم ونزع اكتافهم .

واستسلّوا لفخرِهم مـن لسا ني صارماً غرْبه الكلام الكثيرُ

فهو دائماً حريص على أن يقحم نفسه في الأمجـاد الكسـروية رغم أنه بعيد عنها بعداً شاسعاً . لقد عرف مهيار اذاً كيف يحقر العرب ، وكيف يهزأ بهم لفخرلم بالخطابة وآلاتها .

والشاعر يعرف تماماً ان للعرب فضيلة يفخرون بهـا أيضاً ، تلك هي فضيلة الكرم التي حتمتها عليهم طبيعة أرضهم ، فلم يحجم عن تحقيرهم واظهار كرمهم كرماً وهميـاً حيال كرم الأكاسرة العظيم . فقد جاء في احدى مدائحه لكمال الملك أبي المعـالي قوله :

بنت له فارسٌ بيتاً دعامتـــه
في الأفقِ لا بين «ذي طلح وذي الأرطا [1]
قوم قِرى ضيفهم عقر البدور اذا
غدا قرى المقيمين السمن والاقطـا

وهكذا فإنه يهزا ايضاً من الأماكن المأنوسة عند العرب ، ويظهر أنها لبست شيئاً حيال فارس العظيمة . ولا يخرج مهيار عن مذهب بني قومه فهو دائماً أبدا يحن الى رجوع الملـك الى آل كسرى اسماً وفعلاً ، وإن كان يتعزى بوجود البويهيين وهم الفرس على رأس السلطة الفعلية في بغداد . فهو ساعة يمدح واحداً من ملوكهم كجلال الدولة مثلاً لا يتمالك عن اظهار ميله هــذا ويعدوه الى تمثل كسرى الذي قضى العرب على ملكه ، راضياً عن رجوع الملك إلى البويهيين ، فهو مسرور رغم تنحيه جانباً . قال

١ – اماكن في البادية .

مهيار مادحاً جلال الدولة :

وعاد المهرجانُ بخفض عيشٍ ... برف على ظلائله الصفاقِ
هو اليوم ابتناه ابوك كسرى ... وشيّد من قواعده الوثاقِ
وشقّ له من اسم الشمس وصفاً ... يصول به صحيح الاشتقاق
ويُقسم لو رآك جلست فيه ... لجاءك قائماً لك فوق ساق
واعجبه تنزله بعيداً ... وأنت على سرير الملك راق
واسلاه عن الأيوان بقيا ... مقام العز في هذا الرواقِ

فمهيار يظهر تعصبه جلياً في البيت الأخير مدللا على رغبته في بقاء الملك بيد الفرس لأنهم أهل سياسة ورئاسة كما يقول وعنهم تؤخذ السياسات . وهو ساعة يمدح أحد الفرس أيضاً عميد الرؤساء ابا طالب بن أيوب يشير الى انه اعاد المجد واحياه إيماناً منه بالمجد الكسروي القديم فقال يخاطبه :

ردّ «عميدُ الرؤساء» دارس الـ ... مجد وأحيا كلّ فضلٍ داثر
ولم يقصر قومه عن سؤددٍ ... يُخبرُ عن أولهم بالآخرِ
ولا استنزلوا عن شرفٍ ... توارثوه كابراً عن كابرِ

وفي مدح كمال الملك أبي المعالي قال مفاخراً ببني التيجان :

وتجلت لتجيء بعد لمثلهم ... فأبت على الميلاد وبطن العاقرِ
إبناء تيجان الاسرّة قوبلوا ... في الفخر بين مرازبٍ[1] واكاسرِ
وإذا الرواية به في السيادة ضعّفت ... نقلوا الرياسة كابراً عن كابر
كانوا الرؤوس قديمها وحديثها ... في مؤمن من دهره أو كافر

---

١ — جمع مرزبان وهو رئيس الفرس

هذه الرياسة يتغنى بها مهيار دائماً ويفاخر بانتقالها كابراً عن كابر . ويضيف الى الامجـــاد الكسروية عظمة تتمناها النجوم ولو نزلت فيها لما شاءت عنها رحيلاً وقد يكون الشاعر مبالغاً فيما يقول ولكنه صادق كل الصدق في شعوره . فقـــد تأصل حب بني قومه في نفسه ، ولعله يتوهم رفع نسبه ان هو فاخر بأمجادهم ، فيرضي كبرياءه المتعطشة الى الرفعـة والمجد . جاء في بعض قصائده مفاخراً ببني امته :

نقل الرياسة كابراً عن كابر ... قومٌ إذا عثر العجُول تمهّلا

وإذا الملوكُ تدارست أنسابها ... ألفيته فيهـــا المعمّ المخولا

في ذروة الشرف التي لو حلها ... سعد الكواكب لم يرد متحولا

بيتاً عتيقاً في السماء بناؤه ... قدماً ومجداً « كسروياً » اولا

وهو يحرص دائماً في كل ما يقول على ان يجعل نسبه ملازماً لنسب ممدوحيه من الفرس ايا كان شأنهم ومكانتهم . ولعلهـم كانوا يسمحون له بهذا التطـــاول لحاجتهم لمن ينشر مآثرهم ، والشاعر هو البوق النافخ بالمكارم في تلك الايام . قال في قصيدة يمدح بها ابا سعد بن عبد الرحيم :

من آل عبد الرحيم قد وصل الل ... ـه لبيتيه بالعـــلا رَحِما

بنت عليه قبابُ « فارس » اذ ... لاكاً رسى اصل عزها وسما

مجد قدامي وخير مجديك ما اس ... تسلف صدر الزمان او قدُما

يا سرحةً من ثمارها حَسَبي ... لاخفرتك البروق ذمـة ما

التف عيصي بعيصكم فغدا ... ودي خليطـــاً بكم وملتحما[1]

---

١ ـ العيص الشجر الكثير الملتف .

وفي رثائه لعميد الجيوش أبي علي بن استاد هرمز ، نراه يضرب على الوتر نفسه ويؤكد صلته بأشراف الفرس :

ولقد أعدّ إذا بكتك صادقاً   في الحافظين وواصلي الأرحام
أصلي وأصلك في مفرّ واحد   وتفاوت الفرعين بالأقسام
وإذا تشجرت المناسب والتقى   الفخران كان ابوك من اعمامي
شرف وصلنا حبله في فارس   بالمحكمين[1] مرائر الأبرام

لقد أدركنا إذاً أن الشاعر معجب بقومه ويسعى جاهداً في إظهار مآثرهم وربط نسبه بنسبهم وهو على هذا لا يترك مناسبة إلا ويندد فيها بالأعراب وينال منهم . ولقد كان له من تشيعه ساعد قوي على النيل من العرب تحت ستار المدافعة عن حق آل علي . فهل كان فاتر الإيمان يتستر بالتشيع ليوقع بالدين ومعتنقيه؟

يشير احمد أمين في كتابه فجر الاسلام إلى أن التشيع كان ملجأ لمن ساورت له نفسه النيل من الاسلام والايقاع به . فهل كان مهيار من هذا الرعيل ؟ وبكلمة اوضح هل كان مهيار منضوياً تحت لواء الشعوبية الدينية كما كان شعوبياً سياسياً ؟

مما لا شك فيه ان مهيار قبل ان يسلم كان صادق المحبة والاخلاص لآل علي على الأقل . وعندما أسلم كان من الجماعة التي احسن اسلامها من الاعاجم . ولم يخطر بباله قط النيل من الدين . وإنما كل ما كان يصبو اليه هو تقويض الخلافة العباسية ونقل الملك الى الفرس ، فهم أحق به من ناحيتين أصالتهم فيه وتمرسهم بالسياسة ثم تشيعهم ، فهم أولى

١ - المرائر : الحبال أحكم فتلها ، مفردها : مريرة .

الناس بإرب السيعة . وهكذا فإنا نرى مهيار في قصيدته الشهيرة « أتعلمين يا ابنة الاعاجم » التي قالها قبل ان يسلم طعنا جريئاً على العرب ، ودعوة صريحة الى استرداد الملك الفارسي ، لأن الفرس رعوا دمة علي وآله فهم أحق بالخلافة من العرب الذين اوقعوا بآل البيت ، وخانوهم وغدروا بهم . وهو في هذه القصيدة يفند مفاخر العرب ويسفهها راداً عليها . وكأني به يقابل او يوازن بين العرب والفرس ، فيظهر مآتي هؤلاء ومثالب اولئك . قال:

اتعلمين يا ابنة الاعاجم كم لأخيك في الهوى من لائم
وهو مع المجد على سبيله ماض مضاء المشرفي الصارم
ممتثلاً ما سنه آباؤه إن التسبول سبه الضراغم
من ايكة مذ غرستها فارس مالان عمراً فرعها لعاجم

ثم يذكر مجد آل ساسان إلى ان ينتهي إلى قوله :

شتان رأس يفخر التاج به وأرؤس تفخر بالعمائم
كم قصرت سيوفهم عن جارهم خطى الزمان قائماً بقائم
ودفعت حماتهم عن نوب عظائم تكشف بالعظائم
مناقب تفتق ما رقعتم من بأس «عمرو» وسماح «حاتم»[1]
ما برحت مظلمة دنياكم حتى أضاء كوكب في هاشم

ويذكرهنا فضل النبي في هدي العرب الى السراط المستقيم ، ويشير أخيراً إلى أنهم غدروا به وبآله من بعده ، بينما بقي الفرس أوفياء . ويدعو أخيراً دعوة صريحة إلى أن الفرس هم أحق بالخلافة من

---

[1] — عمرو بن معد يكرب من شجعان العرب . حاتم الطائي من اجواد العرب .

العرب . جراءَ لوفائهم فيكمل قوله :

ثم قضى مسلّماً من ريبة فلم يكن من غدركم بسالمِ
نقضتم عهوده في أهله وحلتم عن سنن المراسمِ
وقد سهدتم مقتل ابن عمه خير مُصلّ بعده وصائم
وما استحل باغياً إمامكم يزيدُ بالطفّ من ابن « فاطم »
والفرس لما علقوا بدينه لم تنل العروه كفُ فاصمِ
فمن إذا أجدر أن يملكها موقوفة على النعيم الدائم

وبعد هذا فإنه يلوذ بالصبر جرياً على عادة الشيعة ، وإيماناً بمجيء يوم يحصحص فيه الحق ويرهق الباطل . وهذه الفكرة كانت فيما بعد في اساس عقيدة المهدى المنتظر عند الشيعة الامامية : قال مهيار :

لا بدّ يوماً أن تقال عثره من سابقٍ أوهوةٌ من حازمِ

وهكذا يبدو مهيار عنيفاً في تقريعه العرب ، مبيّناً لهم أنهم ليسوا أفضل من الفرس ، وإن كانوا يدعون بأنهم شرفوا بالنبي فإنهم لم يرعوا له إلا ولاذمة ، بل خانوه وغدروا بآله ، وأن كل المجادهم الباقية هراء حيال الأمجاد الكسروية فلا العمائم ولا الندى ولا الكرم ولا الشجاعة ولا البأس تفيدهم شيئاً اذ قورنت بالدوحة الفارسية الشريفة الأرومة .

وما كلُّ حصباءِ البحار جواهر ولا كلُّ اعضاء الجسوم عيونُ
ولا المجدُ إلا دوحة فارسية لها من بنى عبد الرحيم غصون

ولا يكتفي مهيار بالدعوه العلنية لعودة السيادة الى ايدي الفرس بل إنه يلح ويلحف في تمني هذه العودة . وكأني به يتألم

كل الالم لوجود السلطة فى ايدي العرب وينظر بعين بصيرته الى المستقبل البعيد فيراه غداً مشرقاً باسماً وقد انتقل الملك فيه إلى أيدى آل ساسان . فيخاطبهم بقوله

توقعوا عودَ إياب عــــزكم وليتوقع غيظــــه المضرّما
كأنني من خلل الغيب أرى شمس الضحى تفتق هذي الظلما

هذه أمجاد آل ساسان ، وهذه مخاريكم يا عرب فكفوا عن الفخر والتيه علينا . هذا ما أراد الشاعر قوله . وكأني بمهيار قد أصيب بصدمة عاطفية ايضاً . ذلك أنــه مولى في عرف العرب والعرب يأنفون من تزويج الموالي من بناتهم . فهل أغرم الشاعر بعربية من اولئك الحرائر فأعرضت عنه لعجمته ووضاعة نسبه وكونه من الموالي ؟ في شعر مهيار بعض الدلائل على ذلـــك . فهو يحاول أن يقنع امرأة ان كونــــه من فارس يجب الا يقف حائلاً دونه ودونها فأم سعد هذه التي يخاطبها في اكثر من قصيدة من شعره من تراها ؟ أشخصية وهمية هي خلقها الشاعر يتشبب بها ، على غرار الشعراء الذين عاصروه وتقدموه – وتلك كانت العادة الشائعة أن يتشبب الشاعر بمعشوقة ما – أم تراها شخصية حقيقية عاقبت مهيار بالصد ، فأذكت عواطف قلبه وأشعلت نار كبريائه ، فجاء يفخر ويتسامى ؟ ولعلها تساءلت عن أصله بعد أن اعجبها أدبه . تساءلت كي تطمئن ، فلما علمت انه مولى أعرضت عنه فجاء مهيار يظهر لها من هو بقوله :

أعجبت بي بين نادي قومها « أم سعد » فمضت تسأل بي .
سرها ما علمتْ من خلقي فأرادت علمها ما حسبي

لا تخالي نسباً يخفضني   أنا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتىً، ومشوا فوق رؤوس الحقبِ
عمّموا بالشمس هاماتهمُ   وبنوا أبياتهم بالشهبِ
وأبي كسرى على إيوانه   أين في الناس أبٌ مثل أبي
قد قبستُ المجد من خير أبٍ   وقبست الدين من خير نبي
وضممت الفخر من اطرافه   سؤدد الفرس ودين العربِ

إنها عربية إذن تفخر بانتمائها إلى القبائل العربية الأصيلة فكيف ترضى بمولى ؟ فيرد عليها مهيار مثبتاً لها أنه لا يقل عنها شرف أصل وطيب محتد، بل يفوقها أضعافاً مضاعفة .

أما من ناحية الدين، فإنها سواء بالاسلام . فإن مهيار يثبت أصالة أرومته في قصيدة أخرى ويحاول أن يقنع تلك المتدللة أنه لا يضيره شيء إن لم يكن أصله في خندف أو وائل أي في هذه القبائل العربية التي تفخر بها .

أنا من علمتِ قديمَه وحديثه   علمَ اليقين، وإن جهلتِ فسائلي
قومي الملوك وخيمُ نفسي خيمها   أفلح بمثل أواخري وأوائلي [1]
ما ضرّ « عيصي » في أرومة « فارس »
ألا يكون « بخندف » أو « وائلِ » [2]

نحن الولاة العادلون ولم تزل   أثآرنا حَلْيَ الزمان العاطلِ
مُذ دُنا فمذ عدمَ الأنامُ رعاتَنا   عدت الذئابُ على السوام الهامل [3]

---

١ ــ الخيم : الطبيعة والسجية .
٢ - العيص : الأصل .
٣ ــ السوام الهامل : الماشية بلا راع .

عمرت بنا الدنيا فضة عذرها فينا وعمر سبابها المتخايل
تتبسم التيجان فوق رؤوسنا عن كل وضاح الجبين حلاحل[1]
من عدّ نفساً فخره وقبيله فلنا أثارة فخره المتقابل
وعلى بقيما طلاوة سؤدد تهدي لعينك فائتاً في حاصل

هذه هي مظاهر السعوبية عند مهيار أو ضحت معالمها وأسبابها وإنها لتختلف كل الاختلاف عن سواها من الشعوبيات، بأنها شعوبية سياسية وحسب، لا تهدف إلا الى نقل الملك من ايدي العرب إلى أيدي الفرس ليستعيدوا سالف مجدهم وتالد عزهم. اما الدين فإن مهيار يكن له كل احترام، وقد تأصل في نفسه. فما نال منه قط، بل كان فخوراً باعتناقه، مغتبطاً بخلاصه من الشرك. ولعل لمهيار عذره كما ان لسواه من الشعوبيين عذرهم أيضاً، فإن النفوس البشرية اياً كان اصحابها لا تنام على ضيم. ونزعة الشعوبية كانت رد فعل لحركة اضطهاد عنصرية قام بها العرب، ولم يوصهم الدين بذلك، لا سيما وأن قوماً من الموالي قد فاقوهم بعلمهم وتقاهم. ولكن ذلك كلهما كان ليثنيهم عن احتقار هؤلاء الموالي وازدرائهم، فبقوا لا ينظرون اليهم نظرة احترام تامة. فكان من الطبيعي أن يشعر هؤلاء الموالي بالغبن، ويتحينوا الفرصة للإيقاع بالعرب والثأر منهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ولكن مهيار في احتدام ثورته ضد العرب لا يعدم فترات خير يساوي فيها بين العرب وبين الفرس، ولا سيما من حيث المذهب

---

١ - الحلاحل . السيد العظيم

ومحبة الحسين . هذه المحبـــة التي جمعت العجم والعرب حتى لا فرق بينهما .

كنا وإن كرمت نفاخرها به فالآن ما بعد الحسين فخار

إذاً لا مفاخرة بعد الحسين بين عرب وفرس . ولكنه ينسى هذا القول فيعود سيرته الأولى . ولعل الألم الذي كان يشعر به من جراء معاملة بعض العرب كان يدفعه الى ذلك . وقـــال في الكلام على عيدي الفطر والمهرجان مساوياً بينهما ، ومساوياً بين العرب والفرس مشيراً إلى أنهم قد نسوا الأضغان والاحقاد القديمة والموروثة .

يومان للفرس أو للعرب بينهما حظ السعادة مقسوم بمقدار
تصاحبا صحبة الخلين واتفقا سلما ولم يذكرا أضغان ذي قار[1]

وختاماً لا بد من القول ان مهيار كان خير ممثل لحركة التشيع الحق ، وخير ممثل لحركة الشعوبية الحقة ، وفي كلا الاثنين كان صادقا . ولعل أجود شعره ما جاء في هاتين الناحيتين .

---

١ - ذو قار : من ايام الحروب التي وقعت بين الفرس والعرب . وكان النصر للعرب .

الغـــزل

قلب الشاعر قيثارة تغني ألحان الحب والجمــال ، والمرأة هي بيت القصيد في معزوفة الوجود البكر ، هي اللحن ومنها يشع السنا والجمال . تمر كالطيف في فـؤاد الشاعر فتلهب احاسيسه ، وتملأ حنايا نفسه بمواكب الجمــال وشتى الرؤى والتهاويل فيمرع الصخر الجامد ويغني الجندل الأبـكم ويرقص الكون تيهاً وفخراً بالحدث السعيد . تعد بوصالٍ ، فإذا الكـــون يتجسم في لحظة الوصالٍ هذه فتفتح الأقاحي وتغرد الطيور وتضج الدنيا بالألحان العذاب المسكرات . وتعرض فإذا الكون متجهم عبوس منذر بالمخاوف والشرور ، وتربدّ ملامح الدنيا ويدلهم وجــــه الحظ العاثر ويري المرء كل شيء بمنظار قـاتم كالح ، فيئن الفؤاد وتتسع الكلوم وتسيل المآقي دموعـــاً هاطلات ، وتذوي النفس في سويدائها مكتوية بألم الفراق. وليس كفؤاد الشاعر فؤاد يطرب للجمال فيغنيه ، ويخفق بجذوة الحب فتسره وتلهيه ، وقد تكويه فتشجيه . وليس كالشاعر من يصور مظاهر الجمال والانفعالات التي تولدها في النفس البشرية . وهكذا عني الشعراء بذكر هــذه

الانفعالات التي يسببها في نفوسهم مرأى المرأة الحسنـاء وسمي كلامهم هذا غزلاً ونسيباً وتشبيباً.

والغزل من ابرز الفنون الشعرية دلالةعلى اصالة الشاعر ، وعلى الطاقة الشعرية التي يتمتع بها لأن الغزل إنمـا يصدر عن شعور شخصي خالص ، فيأتي ، إن كان صادقاً ، بعيداً عن التكلف والصنعة . ولقد حفل الأدب العربي قديمه وحديثـه بطائفة لا يستهان بها من الشعراء الغزلين ، وكلهم يعزفون على قيثارة القلب وأوتار النفس التي صدعت بمرأى الجمال . فمن امرىء القيس إلى عمر بن أبي ربيعة إلى بشار بن برد إلى البحتري الى الأخطـل الصغير ... سلسلة متكاملة الحلقات في هذا الأدب العربي الذي حفل بالمظاهر الغنائية على اختلافهـا . ولعل الغزل كان ابرز مظاهر الشعر هـذه تعبيراً عن نفسية منشديه ، فكلهم غرفوا من معينه ووردوا منهله وإن اختلفت عنـدهم وسائل الأداء . ولقد مضى على العرب حين من الدهر ، كانوا يعتبرون المطـالع الغزلية ، يستهلون بهـا قصائدهم ، فرضاً واجبـاً يحتمه الفن الشعري ، والا اعتبر الشاعر مقصراً واعتـبر شعره غثاً بارداً ، خارجاً على عمود الشعر . وأكثر مـا كان هذا اللون في صدور القصائد المدحية ، إلى ان كانت حركات التجديـد الكبرى في العصر العباسي على يـد بشار وأبي نواس وأبي تمـام والمتنبي من بعد . ولكن تلك الثورات الشعرية لم تكن كفيلة بالقضاء قضاءً مبرماً على هذا التقليد الموروث الذي ألفته نفوس الممدوحين في العصور القديمة . وبقي الشعراء ، ومهيار من بينهم يلجأون إلى

هذا الضرب المدرسي من الشعر ان صح القول في أكثر مدائحهم وما زلنا حتى يومنا هذا نرى ، من حـــين إلى آخر ، الشعراء المرتزقة يعودون إلى نهج أورثتنا إياه العصور الجاهلية .

ومهيار الديلمي ، أي نصيب ناله في ميـــدان النسيب ؟ وهل كانت المرأة خفقة حية في قلبه ؟ وهل ألهمته من بحور القريض ما يطرب النفس ويرقص الفؤاد ؟ إذا شئنا أن نميز الأبواب الهامة التي اكثر مهيار من معالجتها فإننا نخرج من الديوان بأبواب ثلاثة : المديح والرثاء والغزل . وبعدما هي قيمة غزل مهيار ؟

مما لا شك فيه أن مهيار قد أحب واحـــدة من الغواني حباً صادقاً ، ولقد كوت قلبه بنار حبها ، وسنرى أثر ذلك في شعر مهيار الغزلي . ومما لا شك فيه أيضاً ان الشاعر الديلمي كان يقتفي آثار من سبقوه وكان يقلد المبرزين من شعراء الغزل تقليداً تاماً ، فيجتر معانيهم ويفتعل الحوادث التي كانوا يعيشونها ولعـــل تتلمذ مهيار على يد الشريف الرضى كان له أبعـــــد الأثر في دفعه في طريق التقليد الغزلي . ويبدو السبب واضحاً ، اذا ما علمنا أن مهيار كان شديد الاعجاب بالشريف شديد التأثر به في ميدان الأدب وفي مظاهر الحياة العامة . أضف إلى ذلـــك الشهرة الواسعة التي نالتها « حجازيات » الشريف في ذلك العصر ، وكلها غزل بريء متعفف . وهذا التعفف بالذات هو الذي تقع عليه في غزل مهيار ، حتى أننا نستطيع القول : أن ما من بيت في غزل الشاعر ، على وفرته ، تستحي العذراء من قراءته . وإذا مـــا تقصينا غزل مهيار فإننا نجده دائماً في مطالع مدائحه ، لأنه قلّما وقف قصيدة في

شعره على الغزل الخالص . ولكن غزله هذا لا يخلو من رونق وجمال . خذ مثلاً قوله :

أذكرونا ذكرَنا عهدَكمُ ربَّ ذكرى قرَّبت منْ نزَحا
واذكروا صبّاً إذا غنى بكم شربَ الدمعَ وعافَ القدَحا
قد شربْتُ الصبرَ عنكمْ مكرَهاً
وَتبعتُ السقم فيكم مُسمِحا
وَعرفت الهمَّ من بعدِكمُ فكأني ما عرفت الفرَحا

وهناك خاصة تميّز بها غزل مهيار ، بل لعلها تشده أيضاً إلى استاذه الشريف ، ألا وهي الشكوى من الشيب المبكر ، وما كان الشاعران يلقيانه من إعراض الغواني عنهما بسبب بياض لمتيهما . وقد وخط الشيب مهيار واستاذه في سن مبكرة جداً من حياتهما ، لعلها في حدود الثلاثين . قال الشريف[1] يشكو الشيب المبكر ويتحسر على الشباب الغض الذاهب :

واهاً على عهدِ الشباب وطيبه والغضّ من ورَق الشباب الناضرِ
سبعٌ وعشرون اهتَصَرْنَ شبيبتي
وألَنّ عودي للزمان الكاسرِ
تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدي وتضل في ليل الشباب الغابرِ
لو يُفتدى ذاك الشبابُ فديتُه
بسوادِ عيني بل سواد ضمائري

هذا التبرم بالشيب ، وهذه الشكوى الأليمة نراها في كثير من شعر مهيار . ففي هذه القصيدة الرقيقة التي اوردت بعض ابياتها الغزلية يكمل مهيار قائلاً .

---

١ – الفلال : ص : ٢٥

ما لِساري اللهو في ليل الصبا ضلّ في فجرٍ برأسي وضحا
ما سمعنا بالسُّرى من قبله بابن ليل ساءه أن يصبحا
طارقٌ زارنا وما أنذرنا مُرْغياً بَكراً ولا مستنحا

إلا أن مهيار لا يكتفي ، في شكواه من الشيب وتبرمه به ، بالصور المجازية العذبة ؛ والاستعارات البيانية المحببة . بل كثيراً ما يدع التلميح ويلجأ الى التصريح بلفظ عذب جميل ومن ذلك قوله :

وفؤادي يَشتكي جَوْرَ النوى وعذاري يشتكي جور المشيب

وكثيراً ما يطالعنا مهيار في غزله بأبيات يذكر فيها اعراض النساء عنه بعد ما يرين رأسه وقد اشتعل شيباً . هو ذا يروي حواراً جرى بينه وبين احداهن . وقد عابته ببياض عذاريه ٠

قالت على « البيضاء » أختُ عامر
أسفر في فَوْديك ذاك الغيهبُ
ومن بلاياك وإن عبتِ به سبابُ حبي وعذارى الأشيب
غدْرُك والحسون أي روضة قشيبةٍ بينهما لا تجدب

ويروي في موضع آخر كيف أن احدى صويحباته قد عيرت رأيها في حبه بعدما رأت الشيب في شعره . ويحاول مهيار ان يثبت لها ان الشيب جمال وكمال :

فرأت شيباً ، فقالت عثرت قلت مهلاً : آية الليل القمر

ويبقى الصدود نصيبه بسبب شيبه الى ان يوفق بواحدة ممن تعشقه لأنه أبيض اللمة ، فيسر ويبتهج كثيراً ، ويتعجب ويتساءل ٠ أ ترى يكون الشيب طريقاً في بعض الأحيان للحب .

وبيضاءَ لم تنفر لبيضاءِ لمتي وقد راعَ منها ناصلُ الصبغ ناصعُ
رأت نحرها في لونــه فصبت له
وما خلتُ أن الشيبَ في الحب شافع

لم يكن مهيار صادقاً في غزلياته كلها ، وعلى هذا فقد كان غزله مختلف القيمة الشعرية ، يتراوح بين الغثاثة والاجادة أما ما كان مهيار صادقاً فيه فقد جاء جميلاً أخاذاً ولا عجب « فصادق الحب يملي صادق الكلم » كما تقدم . بل يسعني القول : انه كان في طليعة المجلين في هذا الفن الغزلي ، لما تتميز به أبياته في هــذا المضمار من ايقاع عذب وصور جميلة بارعة وأنغام موسيقية تثير لواعج القلب ، وتذكر كل حبيب بحبيبه ، فيأنس بهـــا الفؤاد وتطرب بها النفس ، وتطمئن لها الآذان . وهل أبــدع من قوله يصف دار إماما إحدى حبيباته الكثيرات .

بكــرَ العارضُ تحـــدوه النُّعامَى
فسقاكِ الرِّيَ يا دارَ «أمامـــا»[1]

وتمشّت فيكِ أرواحُ الصَّبا	يتأرجنَ بأنفاسِ الخزامَى
وإذا مغنىً خــلا من زائرٍ	بعد ما فارق أو زير لِمـــاما[2]
فقصى حظُّ الهوى أن تصبحي	للمحبين مُناخـــاً ومُقاما
أحتدي المزنَ ومادا أربي	أن تجودَ المزنُ أطلالاً رماما[3]
وقليلاً فيكِ أن أدعو لهـــا	مـــا رآني الله استجدي الغماما

---

١ — العارض: السحاب ـ النعامى : ريح الجنوب وهي أبل الريح وأرطبها
٢ — المغنى : الربع . اللمام : الزيارة القصيرة .
٣ — رماما : بالية

أين سكانــك ؟ لا أين هُمُ　　«أحجازاً» أقبلوها أم «شآما»
و«بجرعاءِ الحمى» قلبي فعُج　　«بالحمى» فاقرأ على قلبي السلاما
وترجَّل فتحدَّث عجباً　　أن قلباً سار عن جسمٍ أقاما
قل لجيران «الغضا» : آهِ على　　طيب عيشٍ «بالغضا» لو كان داما
نصلُ العامَ وما ننساكُمُ　　وقُصارى الوجد أن نسلخ عاما
حمّلوا ريح الصبا نشرَكُم　　قبل أن تحمل شيحاً وثماما[1]
وابعثوا أشباحكم لي في الكرى　　إن أذنتم لجفوني أن تناما
وقف الظامي على أبوابكم　　أفيقضي وهو لم يشف أواما[2]
ما يبالي من سقيتن اللَّمَى　　منعكن الماء عذباً والمداما
واعجبوا أن يرى الظَّلم حلالاً　　شاربٌ وهو يرى الخمر حراما[3]
أشتكيكم وإلى من اشتكي ؟　　أنتم الداءُ فمن يشفي السقاما .

وهكذا يمضي مهيار في غزله متخيراً من الأوزان أرقها نغماً ومن الألفاظ أعذبها وقعاً ومن الالتفاتات البيانية أكثرها رونقاً وجمالاً ، ومن المعاني أشدها إثارة لهوى القلوب حتى ليخيل اليك أن هذا الشاعر قد كواه الحب بناره ، وأضناه فراق الأحبة حتى لم يدع من جسمه إلا بقايا تدل على انه كائن بشري وينصحه الناصحون بأن يرأف بنفسه ويلطف بها ويتناسى معشوقته التي كاد حبها ان يقضي عليه . ولكنه يعرض عن كل هذا سعيداً بحبه على ما يسومه من سوء العذاب . وإذ به يصف

---

١ — نبات ضعيف .
٢ — الأوام : العطش الشديد .
٣ — الظَّلم : ماء الأسنان.

حاله هذه بلفظ يصور حالة المحبين تصويراً بديعاً . قال في بعض مطالعه الغزلية .

كثرٌ فيكِ اللوّمُ وأين سمعي وهمُ
قلبيَ واللومُ عليـ ـكِ مُنجدٌ ومتهم
سعوا بغشٍ لا سعوا وينصحون: زعموا !!
وأتعبُ المكلفيـ ـن ناصحٌ مُتّهم
قالوا : سهرتَ والـ عيون المسهرات نُوّمُ
وليس في جسمك إلا جـلدةٌ وأعظمُ
وهل سمات الحب إلا سهرٌ وسقمْ
خذْ أنت من شأنك يا دمعيَ خُذْ ودعهُمْ
اين دماكَ - والهوى سؤالُنا - أين هُمْ
وفي التشاكي قُبلٌ مخلوسةٌ تُغتنمُ
كلٌ فتاةِ لحظها على القناة لهذمُ[1]
لو لم تكن تدمي به ما مارج الدمع دمْ
عادت بقلبي مشركاً وهو حنيفٌ مُسلم

ويرافق هذا الأنين مهيار في أكثر غزله ، لا بل إن الغزل قد رافق الشاعر طوال حياته ، وحفل به شعره كله . وقد كانت الشكوى الطابع المميز لذلك الغزل. فهل يمكن القول ان الشاعر المحب الصادق لم يكن ليلقى شعوراً متبادلاً ممن يحب . إن ذكر الصدود والإعراض وافر في شعره ، يسمه بسمة الألم الدائم والانين المتواصل : هو ذا يقول :

١ - اللهذم : الحد القاطع من السنان .

اتراها يوم صدّت أن أراها   عَلمت أنيّ من قتلى هواها ؟
أم رَمت جاهلةً الحاظهـــا   لم تُميز عمدها لي من خَطاها ؟
قال واشيها – وقد راودتها   رشفة تُبردُ قلبي من لمّاهـــا
لا تسُمها فمَها إن الذي   حرّمَ الخمرة قد حرّم فاها
أعطيت من كلّ حسن ما اشتهت
فرآها كلُّ طرفٍ فاشتهاهـــا
وحماها خَفَرٌ في وجهها   ووقارٌ قبل أن تسمى أباهـــا .
لو خلت من أسرةٍ في قومها   ونقاها حسب راكٍ بهاها [1]
غدت الشمس إذا ما أسفرت   اختها، والغصنُ إن ماست أخاها

بمثل هذا الغزل العذب كان مهيار يصعد زفرات الجوى ، يرسلها فؤاده المكلوم . لقد كان في حنين متواصل إلى لقـــاء الحبيب . وكان يرى طيفه في كل ما حوله ، فتهيج لواعجـــه ، وتسيل دموعه ، وتعود الى خاطره ذكريات الوصال القــديم ، فيود لو يستطيع وصالاً آخر مماثلا . هي ذي هند هذه المـــرة تتلاعب بفؤاده . فيتراءى له طيفها فيئن وينشد .

أيا بانةَ «الغورِ » عطفاً سقيت   وإن كنت أكني واعنى سواك
أحبك من أجل من تشبهين   لو أني أراه كما قد أراك
ذكرتُ ، ويا لهفي هل نسيتُ   ليالي اسمرهـــا في ذراكِ [2]
يخضرُ عودك من دمعتي   ويعطر من بُردِ « هندِ » ثراكِ

---

١ – الظاهر ان ضمير الفاعل في « عاها » يرجع الى الخمر في البيت الذي قبله .
٢ – الدرا الكنف

ويا « هند » إن عقل الكاشحون
وعندهم من دسوني نداك
كفى الوجداني إذ اما استرحب إلى اسمك عميته بالاراك
طمئت إلى اعذب الشربتين فكلتاهما قد حوتها يداك

والعجيب في أمر هذا الشاعر ، أنه لا يقف غزله على حبيب ، واحد ، بل نرى أسماء عديدة تتردد على لسانه . فتارة نراه يذكر هنداً ، طوراً يتغزل بأمامة وحيناً يشبب بأم سعد وحيناً آخر يخاطب لمياء ، وسعاد وأم مالك ، وهيفاء ، وأحياناً غيرها يخاطب ابنة الأعاجم وآناً ينادي اخت يعرب حتى ان القارىء لا يستطيع أن يقف عليه محبوبة بعينها تعرف به ويعرف بها ، كما هي الحال عند قدامى الغزليين من الشعراء . ولكن مهما يكن من امر ، فإن من أنعم النظر في غزل مهيار ، يخلص منه بنتيجة واحدة ، وهي ان الشاعر المولى ، قد شغلت لبه إحدى الحرائر العربيات ، واخذت تدل عليه ، وهو يحاول إقناعها أن نسبه ، لا يقل في الشرف عن نسبها وهذا ما لاحظناه في مجال الكلام على شعوبية مهيار في كثير من شعره وعلى الاخص في البائية التي يقول فيها :

أعجبت بي بين نادي قومها أم سعد فمضت تسأل بي .

والخاصة الثانية التي يخرج بها القارىء ، هي ان هذا الشاعر رغم رقة غزله ، كان من أقدر المقلدين ، ومن اكثرهم اقتفاء للأثر . حتى انه كثيراً ما كان يجتر معاني الأقدمين التي اختزنتها ذاكرته ؛ فإذا به في غزله يكثر من ذكر الأماكن التي كان

يلهو فيها مع عسيقانه وصويحباته ، ومن الممكن لا بل المحتمل ان تكون رجله لم تطأ تلك الأماكن ، بل وعتها ذاكرته من آثار الشعراء الذين سبقوه . ومن الأمثلة على ذلك نظرة " منك ، ويوم « بالجريب »

حسب نفسي من زمان وحبيب [1]

يا ابنة « الجمرة » من « ذي يزنٍ »

في الصميم العد والبيت الرحيب [2]

أنعتكم والهوى يقدم بي   وأغص الصوت والدمع يشي بي

لا يكن آخر العهد بكم   يا ولاة القلب ليلات القليب [3]

يا صبا « نجد » ويا بان « الغضا »   أرفقا بي بالتثني والهبوب

ولم يكتف مهيار في غزله ، من تقليد الأقدمين ، بذكر أماكن اللهو على غرارهم ، بل لعله قد اعجب بطريقة عمر بن أبي ربيعة في الغزل : طريقة الغزل القصصي ، وتطلب المناسبات ، وخلق الاجواء المناسبة ، فأراد ان يدلي بدلوه في هذا المضمار ايضاً وإنني اقول بشيء من الجزم أن مهيار لم يعش قط تلك الأجواء التي وصفها على غرار عمر وإنما هي لذة التقليد تدفعه في هذا السبيل فتخرجه عن صفاء الطبع إلى افتعال الحوادث وتخيلها وهوذا يصف تلك المواقف :

---

١ – الجريب . اسم واد

٢ – يريد بالجمرة احدى جمرات العرب وهي القبيلة لا تنضم الى احد .

٣ – القليب ماء بنجد .

سافراتٌ «بمنى» لولا التقى خمّرتهن شفاهٌ بالقُبَل
كلُّ بيضاء تمنى الكحلُ لو أنه ما بينَ جفنَيْها الكحلْ
نصفُها الأعلى نشاطٌ كله والذي يدنو من الأرض كسلْ
قُلنَ إذا ابصرنني أفٍ له ضلَّ شيخاً وتعاطيه الغزلْ
فإذا ريحانةُ العمر الصّبا وسنوه ، وإذا الشيبُ الأجل
غالطوا وجدي وقالوا أكثرُ الـ عمر في الشيب ، فمن لي بالأقل؟

هوذا مهيار في غزله : مُجيد مبدع مبتكر أحياناً ومقلد يجتر المعاني التي وعتها ذاكرته أحياناً اخرى . وهو في أكثر الأحيان، مبتكراً كان أم مقلداً ، يجيد تصوير العواطف ، بلفظ جميل ، في بحور من الشعر جميلة الجرس عذبة الايقاع . فد يأتي في بعض شعره الغزلي بالغث البارد لا سيا والشاعر كما ذكرنا لم يقف فؤاده على حبيبٍ واحد ، ولم يعرف ، على ما اعتقد جوى الحب الحقيقي ، وانما كان لسانه يوهم أن قلبه يذرب عشقاً وغراماً . ومهما يكن من امر ، فقد وفق في بعض ابياته إلى لمحاتٍ غزلية ، قلما يشاركه فيها شاعر من شعراء العربية ، وهي تصور حال المحبين تصويراً دقيقاً بايجاز من اللفظ بليغ . وها أنذا أسوق بعض تلك الأبيات التي وفق فيها مهيار الى تصوير حالة الوجد هذه :

وما أتبعتُ ظُعنَ الحي طرفي لأغنمَ نظرةً فتكون زادي
ولكني بعثتُ بلحظ عيني وراءَ الركبِ يسألُ عن فؤادي

ويقول في موضع آخر :

آه على الرقّةِ في خدودها لو أنها تسري إلى فؤادها

أو

قدرتْ على قتل النفوس ضعيفةً ... يا للرجال من الضعيفِ القادر

وله أيضاً .

بطرفِـك ، والمسحور يُقسِم بالسحر

أعمداً رماني أم أصاب ولا يدري

ويقول أيضاً :

هبيني أسترُ النجـوى ... أليس الدمـع يفضحني

لسـاني مسـك أملكُه ... ودمعُ العـين يملُكني

وهكذا أثبتَ مهيار أنه جدير أن يُذكر كلما ذُكر الشعراء الغزلون فإنهم وإن اختص كل واحد منهم بلون خاص ، وإن أجاد أحدهم في ميدان معين فقد عالج هو الغزل في مختلف ألوانه وأجاد في اكثر ميادينه ، وعبر عن غزله بكل معنى شريف ولفظ عفيف . وهذه خاصة قلما يشاركه فيها واحد من شعراء الغزل .

المَـديـح

مضى على العرب حين من الدهر فهموا الشاعر فيه مادحـاً يعيش في ظلال أولي الشأن ، وينظم القصائـد ممدداً مآثرهم ومآتيهم. وهذا ما حدا بنفر ممن مارسوا القريض الى أن يتبرأوا من كونهم مداحين وبالتـالي شعراء . نرى صدى لهذا المفهوم في قول أبي فراس الحمداني

نطقتُ بفضـلي وامتدحتُ عشيرتي
فما أنا مـداحٌ ، ومـا أنا شاعر

ولعل السبب في ذلك أن شعراء المدح قد اتخذوا شعرهم آلة للتكسب ونيل السني من الجوائز ، فعفروا جباههم على اعتاب السلاطين والأمراء واراقوا ماء حيائهم في سبيـل الحصول على دريهمات معددوات تفنى وتفني معها عزّة الإنسان وكرامته . ولم يكن من سوق رائجة لبضاعة الشعر غير هذه السوق فاضطر هؤلاء الشعراء إلى السير على هـذا الطريق الهيّن السهل فاغتنوا بعد فقر ، إلا من استغنى منهم لكونـه من السادة الأشراف، فتعفف وترفع عن التكسب بشعره ، ولعل المديح اكثر الأبواب

الشعرية كذباً ونفاقاً ، ولعل اكثر القصائد المدحية التي عرفها الشعر العربي أبعد الأنواع الشعريه عن صدق العاطفة وعفوية الأداء . أنا لا انكر أن هناك نفراً من الناس كانت تهز أريحيتُهم عبقريةَ الشعراء فيسترسلون في مدحهم وتقريظهم والإشادة بهذه الشمائل العالية التي يتحلون بها. فعنصرا الخير والشر طبيعتان ثابتتان في الإنسان ، لازمتاه منذ الأزل وستلازمانه إلى الأبد ، فمن الطبيعي إذن أن يقوم نفر صالح من الناس بأعمالٍ تحمل على إكبارهم وإجلالهم والإشادة بحسن مآتيهم وفعالهم . ومن يشد بذكرهم إنما يصدر عن شعور حقيقي وعاطفة صادقة . دونما رغبة في عطية أو نوال ، بل إكبار الانسان لمكرمة يفعلها أخوه الانسان . هذا أمر لا يختلف فيه اثنان ،أما إذا تعنتنا في قولنا ان الشعر المدحي كله كاذب غير صادق فإننا نقضي على قسم وافرٍ من جيد الشعر العربي ، ونكون بذلك قد بعدنا عن جادة الحق والصواب . فمنذ الجاهليين ، منذ زهير بن أبي سلمى الى الشعراء الأمويين وعلى رأسهم الأخطل والفرزدق ، الى شعراء بني العباس وفي طليعتهم الشريف الرضي وابو فراس والمتنبي نرى نفحاتٍ صادقة في مدائحهم منزهة عن كل تزلف او رغبة في العطاء أو التكسب . بل كانت مدائحهم تلك صدىً لهزة إعجاب ،وإكباراً لعمل مجيد يقوم به ممدوحوهم .

غير ان واجب الانصاف يدعونا الى أن نؤمن إلى حد بعيد بما قاله ابو فراس الحمداني وترفعه عن تلك الفئة من الناس التي تحيا على حساب كرامتها وعزتها . ذلك ان الشعر المدحي في

اكثره كان ضرباً من ضروب التجارة ، بل نستطيع القول . أنه كان مهنة يعتاش بها الشاعر، كما يعتاش سواه بمهن مختلفة تدر عليهم بعض المال .

وكما أن التجارة والصناعة تحتاج إلى مهارة وبراعة في سبيل الحصول على اكبر كمية ممكنة من الأرباح . وهكذا فقد كانت صناعة الشعر ، أو قل صناعة المديح على الأخص اكثر ما تكون بحاجة الى تلك الانواع من المهارات ، والتفنن في الحصول على الكسب الوفير . ولم تكن تلك التجارة بائرة أو عاقة بل على العكس كان المهرة من أربابها « يأكلون في صحاف الذهب والفضة » « وينعلون أفراسهم عسجداً » وتوقف عليهم الدور والقصور وتخلع عليهم الخلع السنية . أما الآخرون فكانوا يزحفون على بطونهم ويريقون ماء الوجوه، ولكن لسان حالهم دائماً لسان حال شاعرنا مهيار .

تجمع بين الماء والنار يدٌ وما جَمَعَتَ الرزق والأدبا

أو قول ابن الرومي .

أيلتمُس الناسُ الغنى فيصيبُهم
والتمسُ القوت الطفيفَ فَيلتوي

فيطلبون ساعتئذ ويلحفون في الطلب ، ولكن القدر يزيد العبث بهم والكيد لهم ، فمنهم من يموت فقيراً معدماً ومنهم من يموت بائساً عليلاً . والعجيب في كل هذا أن الفئة النيرة من الشعب تبيح لنفسها إفاضة المديح على خلفاء وملوك وامراء عار على الإنسانية أن يحشروا في عداد ابنائها . والعجيب أيضاً أن نفراً من أولئك

الخلفاء والملوك والأمراء ممن اتصفوا بالذكاء والحزم وأصالة الرأي، كانوا يسرون لذلك الضرب المُنمّق من الكلام يكيله الشاعر وعينه على بدرة الذهب أو خلعة الديباج. اما كانوا يدركون أن هذا الشاعر او ذاك كان يكذب ويداجي عندما يزعم ان هذا السيد او ذاك اقوى من الليث واجمل طلعة من البدر والشمس. او ما كانوا يدركون ان بعض الشعراء يحتقرهم في قرارة نفسه، ولكنه لغاية ما في نفسه يجود بذلك الخلب الساحر من الكلام. ولكن او ليس الشعر سوقاً ? واكثر ما نشط ذلك السوق في اواخر القرن الرابع الهجري، وأوائل القرن الخامس، وحضر شاعرنا مهيار احتدام ذلك السوق، ومن حضر السوق باع واشترى ? فالى أي حد شارك في ذلك الميدان الكلامي وما كان نصيبه من الاجادة والعطاء في آن واحد ? .

ولعل اصدق تعريف موجز يصلح في مهيار قولنا : « إنه مداحة نواحة . » فإذا أنت سرحت الطرف في ديوانه الضخم، وقعت على كل الأبواب الشعرية المعروفة في عصره، وقبل عصره. ولكن الذي يلفت نظرك تلك الكثرة الفاحشة من قصائد المديح والرثاء، وهذا ما يعزز قولنا ان الادب والشعر على الأخص، كان مادة الإستهلاك اليومي، شأنه شأن السلع الضرورية للحياة. ولعل شعر المناسبات هذا اكثر ما كان يتجلى في المديح والرثاء. ولما كان مهيار، كما سنرى، في طليعة شعراء المناسبات فقد كثر هذان اللونان من الشعر في ديوانه كثرة فاحشة. أضف الى ذلك أننا نستطيع

أن نعتبر مهيار الديلمي خير نموذج للشعراء المرتزقة في زمانه وفي كل زمان . فهو يمدح أياً كان من الناس اذا ما أمل منه خيراً ولو يسيراً . وعلى هذا فقد مدح من السادة عدداً لم يُقيَّض مثله لشاعر سواه . فقلما تولى أمير إمارة أو وزير وزارة أو موظف منصباً عالياً إلا ورف اليه بعض مدائحه . وكذلك قل في الأحداث التي كانت تجري في عصره . فقلما قامت فتنة وأخمدت إلا وذم مقيمها ومدح مخمدها. ولقد كان أكثر ممدوحيه من اصل فارسي . ولعل بني عبد الرحيم كانوا اكثر الناس حظوة عند مهيار ، وأكثرهم حظاً في مدائحه ، فقد خصهم بقسم كبير من شعره ، وكانت أجود مدائحه فيهم . وكان الصاحب أبو القاسم بن عبد الرحيم نقيب النقباء على جيوش الاتراك في جميع انحاء الدولة ، وهو مركز له خطره [1]، وكان بنوه فرساً متشيعين يعطفون على مهيار ، فأجاد في مدحهم .

والممدوح الآخر الذي ناله نصيب كبير من الحظوة بمدائح مهيار ، كان : «أبا طالب محمد بن أيوب . وكان قد استوزره الخليفة القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) ومن بعده وزر لابنه الخليفة القائم بأمر الله . فأظهر في خدمة الخليفتين كفاية واخلاصاً [2]» . أما الممدوحون الآخرون وهم كثر : كأبي نصر سابور ، وأبي الحسين الهاني . وفخر الملك ابي غالب، وابي المنصور بن المزرع وعميد الدولة ابي طالب، ومحمد بن علي بن الطيب . . . وكثير من غيرهم

---

١ — الفلال : ص ١٠٦

٢ — الفلال : ص ١٠٨

فقد فاروا بالشيء القليل من مدائح مهيار. وقد مر بنا كيف أن مهيار قد اعرض عن مدح الخلفاء والسلاطين من بني بويه إلا ما كان من مدح ركن الدين شاهنشاه جلال الدولة بن بهاء الدولة ولقد حاولنا تقصي الاسباب التي حالت دون الشاعر ومدحه هؤلاء الخلفاء والسلاطين عند الكلام على حياة مهيار .

رأينا كثرة المدائح التي كان مهيار يغدقها على ممدوحيه ، فما هي اذاً قيمة هذه المدائح ؟ لقد سلك مهيار في قصائده المدحية الطريق التقليدي ، ولا عجب في ذلك ، فالشاعر راغب في عطاء والممدوحون يرغبون في سماع المدائح التي استقامت على عمود الشعر القديم. فهل يسعى مهيار الى مخالفة ما يرغب الممدوح فيه . وهكذا إذا عدت إلى مدائحه ، ولخذت أي قصيدة شئت منها تجد انها مقسمة على الوجه التالي : مطلع يستهل بالغزل . وصف المشقات التي يمكن للشاعر ان يتجشمها في سبيل الوصول إلى ممدوحه . الانتقال الى مدح الممدوح — الشكوى من الدهر والشيب ، وقد يأتي من حين لآخر ببعض الأبيات الحكمية . ولا ينسى دائماً في ختام قصيدته ان يفتخر بها وبأنها من عيون الشعر الذي ما ُمدِح بمثله إنسان قط .

حذ الجزء الأول من الديوان ففي الصفحة الثامنة والثمانين تقع على هذه القصيدة المدحية التي قالها في مدح الرئيسين سعد الملك أبي الحسين بن حاجب النعمان . واول ما يقع عليه نظرك هذا المطلع الغزلي :

لعلّها واليأسُ منها أغلبُ — إن دنَتِ اليومَ غداً تستَقرِبُ

الله يا هيفـــاءُ لي من زمنٍ نعيمُه بَعـــدَكُمُ معذّبُ
وكلما أطمَعَ فيـــك سَببٌ آمُلُهُ ايـــأس منك سببُ.
يعيشُ قلبي وهو عيشٌ مؤلمٌ ثم يموتُ وهو مـــوتٌ طيبُ

وما ان يفرغ الشاعر من هذا الغزل الرقيق بحبيبة تيمته حتى يعود الى الشكوى من الدهر ومن غدر الأحبة في آن واحد، إذ انه قد بلغ الخمسين من عمره، وقد ابيض فَوْداه، فبات من الصعب ان تقبل عليه تلك التي دلهه حبها.

قالت على البيضاء أختُ عامرٍ اسفَرَ في فَوْدَيْك ذاكَ الغيهبُ
ومن بلاياكِ وإن عبث بـــه شبابُ حبي وعذاري الأشيبُ
غدْركِ والخمسون، أيّ روضةٍ قشيبةٍ بينها لا تُجـــدبُ

وبعد الغزل والشكوى ينتقل مهيار فجأة الى مدح الممدوح، فيكيل الثناء غير متحفظٍ، بل يعطي لسجيته مداها، ويبالغ ويغلو في المبالغة شأن سائر المداحين المرتزقة، فيشيد بـــه راداً كرمه وطيب عنصره إلى أصولٍ ثابتة في اسرته وإلى أمجـــاد عريقة فيها:

لو تُنسبَ المجدُ لمـــا كان إلى غير بني «عبد العزيز» يُنستَبُ
من أرضهم طينتُه، وفيهـــمُ رُواقُـهُ وبيتُـــه المطنّب
داسوا بأعقابِهم هامَ العلا واقتعدوا ظهورها واعتقبـوا
شمُّ الأنوفِ والسيوفِ قَصُرَتْ
دروعُهم، وهي سِباغ تُسحَبُ
توارثوا الملك فلا خلافـــةُ إلا لهم سريرهـــا والموكب
ومنهمُ في حربها وسلمهـــا رُمحٌ يَخُطُّ ولسانٌ يخطبُ

ترى الجبالَ في الحُبى إن جلسوا والاسدَ هيجَ شرها إن وثبوا

لهم قُدامى الفخر ، ما تنقلُه لك الرواةُ وتريك الكتبُ

وولدوا «ابا الحسين» فرأى الـ مجدُ به كيف نموا وانجبوا

وكيف لا تطلُعُ بدراً فيهم؟ والشمس جدٌّ لك والنجمُ ابُ

ورثتَ فضلاً لوقنعت لكفى لكن ابيتَ غير مـا تكتسبُ

كالليث لا تحـلو له فريسة لا يَنتقي فيها ولا يُخلِّبُ[1]

وقلت عاش «لزهير» «هرمٌ» وقام في اهل «الزبير» مُصعبُ

وهكذا يمضي الشاعر في ذكر مآثر القوم ، فلا يترك مكرمة الا ويلصقها بهم وينسبها اليهم. ويفي حق ممدوحه فإذا به الدرة الثمينة في عقد تلك الاسرة الشريفة ، وإذا به ملتقى لروافـد الخلال الطيبات التي يتصف بهـا بنو عبد العزيز . وما ان ينتهي مهيار من الاشادة بمناقب سعد الملك ابي الحسين ، حتى يعود الى نفسه فيسديها حقها من المديح والثنـــاء ، فيفخر بشعره ويمُن على ممدوحه ، بأن هذا الشعر لا يقال لأي كان من الناس ، فهو منزه حتى عن الملوك ، موقوف على الخيرين منهم امثال بني عبد العزيز :

فاسمع اقرِّطكَ شُنوفاً دُرَّها
لغـير آذانكُمُ لا يُثقبُ
من المصونات الـتي تعنَّستَ
خلفَ الخدورِ وهي بكرٌ تُخطَبُ

---

١ – ينتقي : يطلب النقيَ وهو مخ العظام . يخلب : يعمل مخالبه .

تنافس الملوكُ في مهورها واقترعوا في حبِّها واحتربوا
وزادها نزاهةً وورعاً مني أبٌ على البنات حدِبُ
لا يمدح الناسَ ولكن مدحكم يَلزمُ في دين العلا ويجبُ

ويستلفت نظرنا هذا البيت الاخير، وهو أن مهيار لا يمدح الناسَ ففيه مغالطة، ومخالفة للواقع، لأن مهيار أصبح الشاعر الأوحد في أوائل القرن الخامس الهجري، بعد أن مات استاذه الشريف الرضي، وبعد ان زال شاعر آخر هو ابن نباتة السعدي. وكان لا يحجم عن مدح أي كان من الناس، إذا ما أمل منه عطاءً ونوالاً ولكنه كثيراً ما كان النحس رفيقه الى أن قال:

تجمع بين الماء والنار يد وما جمعت الرزق والأديبا

وعلى كل حال لم تكن هذه المغالطة هي الوحيدة التي يقع فيها مهيار فلقد استنّ لنفسه دستوراً في المدح، ولكنه لم يرعَ له حرمة ولا حافظ على مبادئه. ذلك أنه كان يدعو دائماً إلى تنزيه الشعر عن الأبتذال في المدائح، ويدعو الى الحرص، وإلى اهتبال الفرص التي تدر ربحاً وخيراً كثيراً واليك قوله في هذا المضمار:

والشّعرُ صُنْهُ فالشعرُ يحتسبُ
الله إذا لم يَصُن على الشاعرْ
لا تمتهنه في كل سوقٍ فقد تربحُ حيناً وبيعُك الخاسرْ
انظر الى من، وفي مدائح مَنْ أنتَ. وقد بات نائماً ساهرْ
غَالٍ به واستمِ المهور الثقيلات وصاهرْ اكفاءَها صاهرْ[1]

[1] - استم: فعل امر من استام: يقال: استام البائع السلعة بمعنى عرضها وذكر ثمنها.

واحنُ عليــه فإنه ولدٌ ابوه قلب وامــه خاطِرْ
صرّفه فيا يرضى العــلاءُ به ويَعمُرُ العِرضَ بيته العامرْ
إما لفخرٍ يَصدُقُ النّسبُ الحرّ
ويُحيــي ذكر الاب الداثر
او لأخٍ يشفعُ الودادُ بما يرضيه منه بالفذّ والنـــادر
او ملكٍ رُحْتَ منه في نعمٍ انت لهـــا لا محالة شاكرْ

هذه هي المبادىء التي اوصى بهـــا مهيار واراد اعتناقها والتمشي بموجبها، ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا . ومهما يكن من امر فإن هذا الشاعر قادرٌ على الإتيان بالمعاني الجميله في مدائحه حتى اننا نستطيع في بعض الاحيان ان نعتبره في طليعة شعراء المدح. ولعل خياله كان يرفده بتلك الصور الجميلة التي يلصقها بممدوحه فإذا به خير البرية واندى الورى راحة واسخاهم كفاً ، واجملهم طلعة ، واشدهم قوة ساعد، وافصحهم لساناً ، حتى اننا في بعض الأحيان نتوهم ان الشاعر انما يصدر في مدائحه عن عاطفة صادقة وحب اكيد لهذا الممدوح او ذاك . والحقيقة في ذلك ان مهيار كان قادراً على التلاعب بعواطفــه كيفما يشاء ، حتى انه ليوهم الممدوح بصدق حبه واخلاصه له. وخير مثالٍ على هذا الكلام قصيدته التي قالها في مدح كمال الملك ابي المعالي من بني عبد الرحيم الذي كانت في ايديهم نقابة النقباء على جيوش الاتراك ، وقد مر معنا ذكرهم . فبعــد ان تغزل في تلك القصيدة وذكر المشاق التي تجشمها في سبيل الوصول إلى ممدوحه :

قالت: سِرْتَ افتلي عن الكرام المُدُنا[1]
فعنّ لي منهم « كما ل ُ الملك » من بعد العَنا
أبلج يجلو وجهـهُ ليلَ الخطوبِ المدُجنا
ذو غرّة أعدى بها البدرَ السناءَ والسنا[2]
تحسب في جبينـه منها سراجاً مدهنا
أفقـرَه سماحُـه وذلـك الفقرُ الغـنى
لا تقتني إلا السنـاء كفّـه إن اقتنى
كأنـه ليس له من مـاله ما أختزنا
وحـارمٍ بنفسـه يبغي الخميسَ الأرعَنا[3]
جـارٍ على اعراقـهِ بنـى ابوه وبنـى
من معشر خاضوا الأعا صيرَ وراضوا الزّمنا
وشرعوا دين العـلا فروضَـه والسُّننا
اذا احتبى كاتِبُهم قلـتَ كميٌّ طَعَنـا

وما ان يفرغ مهيار من تعداد مآثر القوم حتى يعطف على ممدوحه مباشرة فيصف خصاله ، فإذا به في الذروة من المعالي والكمال ، الصفتين اللتين تتصلان باسمه ويشتق منهما :

« أبا المعالي » والمعا ني ربّما كُنّ الكِنى
ما كان مَنْ كنّاك إلا المُلْهَمَ الملقّنـا
كانَ الكمالُ معوزاً فصارَ مِنـكَ ممكنا

---

١ — افتلى . بحث ، فتش .
٢ — السناء ارفعة . السنا : النور .
٣ — الخميس : الجيش — الأرعن : الكثير . المضطرب لكثرته .

مثّله شخصُك محـ ـدوداً لنـــا مُعيّنا .

لقد كان هذا الديلمي ماهراً في إغداق النعوت على ممدوحيه حتى أننا نرى ان جميع ممدوحيه ، على وفرة عددهم ، قد بلغوا سدرة المنتهى في الكمال الإنساني . ولكن أتراه كان صادقاً في كل ما يقول؟ مما لا شك فيه أن شأنه شأن سائر الشعراء ، فهناك نفر من الناس كانوا يصادفون هوىً في نفسه ، فيصدر في مدائحه لهم عن عاطفة وميل صادقين ، كما أن هناك نفراً وافراً من ممدوحيه ، لم يمدحهم إلا رغبة في عطائهم ، وكان لا يتحرج من طلب هذا العطاء في شعره بكل صراحة ، والحاف شديد في الطلب . ففي قصيدته هذه مثلاً نراه يخاطب ممدوحه كمال الملك ابي المعالي بقوله :

شخصتُ في سؤالكم وكيف لي أن أجبُنا
كم قبلها من ضغطةٍ لم اشكها تصوّنا
لكنكم عشي إذا رعى رجائي الدِمَنا
فضلتمُ الناس سماحاً وفضلتُ لسنا
فما سواكم للندى ولا سوايَ للثنا
فالناس إن سألتم بالناس أنتم وأنا

وفي قصيدة أخرى يمدح فيها كمال الملك نفسه يمهد لطلب العطية بمدح الوزير أبي المعالي فيضفي عليه ما ساء من صفات المجد والكرم والشجاعة والإباء فيقول :

يا كمالَ المُلْكِ ، يا اكرمَ من يمّمتْه طمْنُ الامال يحدّى
يا شهاباً كلما قال العدا كاد يخبو ، زاده الرحمنُ وقدا

يا حساماً كلما ثلّمه الضرْ ب راقَ العينَ إرهافاً وحدّا
ما براكَ اللهُ إلا آيــةً فتنَ الناسَ بها غيّاً ورُشدا
وَثباتُ الليث أن أنكر في شدّةٍ كان مع الأخرى أشدّا

ويعد أن يفرغ من كيل المدح والثناء ينتقل الى غايته التي يريد، مظهراً سوء حاله. وكم هو بحاجة الى المال فلا يخيب الممدوح ظنه، ولا يغير عادته فيه فيخاطبه بقوله:

أبداً أنصبُ نفسي دونكم عَلَماً فرداً وخصاماً ألدّا
غير أني مَنك يا بحرَ الندى أشتكي حظي فقد خاب وأكدى
عادةٌ تُمنعُ أو تُقطعُ بتّاً
وحقوقٌ وجبَت تُهمَلُ جِدّا
ووعودٌ يجمعُ المطــلُ بها أن يرى ميقاتها عندك حدّا
بعد أن قد كنت احفاهم وفاءً
لي وأوفاهم لما أسلفتَ عهدا
حاشَ للسُّحب التي عوّدتهــا
منك ان يروي بها الناسُ واصدى
نَفثَةٌ من مذكرٍ لم يأل في
الصبر للحاجةِ والأوطار جهدا
بعث النيرور يستعجلكم
سائلاً في الوعد ان يُجعَلَ نقدا

ومدائح مهيار لا تبعد في اكثرها عن هذا الخط، فحيثما القيت نظرة على احدى مدائحه، تراه يضمنها هذا الطلب، فكأنه كان جشعاً دائماً إلى المال، وفي هذا من العجب ما فيه. إذ ان مهيار

بقي الشاعر الوحيد تقريباً بعد وفـاة استاذه الشريف الرضي ، وقد اكثر من المدائح ولكنه على ما يبدو قليل الحظ كما يتبين ذلك من شعره .

تجمع بين الماء والنار يد وما جمعت الرزق والأديبا

أو قوله الآخر :

ابداً لك حظاً ناقصاً حينما تبصر فضلاً رجحا

ومثال آخر على إلحافه في الطلب ما ورد في القصيدة التي مدح بها أبا القاسم بن عبد الرحيم ، إذ يخاطبه قائلاً :

وخُذْ لأيام الشتـــاء أهبـــةً
أخذ العروس أهبات العُرْسِ
عندي من جودِك فيه عادة يحبسها النسيان بعض الحبسِ
والجد فيما أنت مهدٍ خالعٌ والنفع أن تلبس وقت اللُّبسَ
وحاجتي ــ اذا اقترحتُ حاجة
في لطف حسٍّ وبحسن حَسَنِ
في أن يكون اليوم ما يأتي غدا
إذ كنتُ قد أجمتكم بالأمس [1]
واعلم بنفسي وأنت خير عالمٍ
أن الشتاء من عدّو النفس

وقد يضيق بنا المجال اذا ما ذهبنا بعيداً في ذكر هذه الإشارات التي كان يأتي بها مهيار مطالباً بعطية أو بهبة ، ولكن فيما أوردناه دليلاً كافياً على ذلك . والذي يحمل على الغرابة في

١ ــ اجمتكم : تركتكم

تصرف هذا الشاعر هو انه كان يتصور أن ذلك العطاء حق من حقوقه على الممدوح . ولم يكن هذا وحسب ، بل كان يدل دائماً بأن هذا الشعر الذي يمدح به ذلك الممدوح أثمن من أن يقوم بمال ، لا بل هو شعر لم يظفر بمثله أحـــد . وهكذا فإنك قلما تقع على قصيدة مدحية لمهيار ، إلا وبطالعك فيها هذا الفخر بشعره . وكأني به سديد الاعجاب بهذا الشعر ، او انه يقلد في ذلك بعض الشعراء الذين تقدموه ، وكانوا يدلون بشعرهم على ممدوحيهم كأبي تمام والمتنبي وسواهما من الشعراء . ولقد مر بنا نموذج من ذلـــك الفخر بشعره وها نحن نعطي المزيد من الأمثلة على ذلك . فمـن مدحه للرئيس أبي القاسم هبة الله بن ماكولا يوم المهرجان هــذه الأبيات يختتم بها قصيدته .

وحَليُ يومِ المهرجانِ هــذه قلادةٌ تُنظمُ دراً مثمنا
لم يَرَ مذ فارق كسرى مثلها أجملَ فوقَ جيده وأزينا

ويختتم قصيدة ثانية يمدح بها احد الكتاب بقوله مفتخراً :

فما أمكنَ القول فـــاسمع أرُ وكَ قوافيَ بادئةً عـــودا
قواضي حـــق الندى والودا دِ متنيّ تؤمُّك أو موحِدا
إذا أكلَ الدهر أعواضهـــا من المال عمّرهـــا سرمَدا
لو اسطـــاعَ سامـــعُ أبياتهـــا إذا قـــام بهـــا منشِدا
لصيّر أبيـــاتهـــا سبحـــةً ومثّلَ قرطاسها مسجِدا

هذه نماذج من شعر مهيار المدحي ، وتلك هي الطريق التي اختطها وسار عليها ، ولكن لا بد في الختام من سؤال ؟ هل كان مهيار راضياً دائماً عن حاله مع اولئك الممدوحين ؟ ألم تـــثر في نفسه

عوامل النقمة على بعضهم ? نقمة الشاعر المـدرك الواعي الأبيّ الأنوف الذي لا يرضى أن يعفر كرامته على أعتاب أناس كل فضلهم أنهم أغنياء ?بلى،لقد تألم مهيار وشكا وثار على مثل اولئك الناس ، ونعتهم بأقبح النعوت ، ورماهم بكل شائنة ، معرّضاً بهم وبأموالهم . تلك هي ثورة من ثورات الكرامة الانسانيـة التي لا يمكن ان تخبو شرارتها ، وتنطفىء الى الأبد ، بل لا بد لها من ثورة عارمة من حين الى آخر ، وتلك هي ثورة من ثورات الكرامة الإنسانية في نفس مهيار :

كمْ أداري عنَتَ الأيام في غَبْنِ حَظّي وأطاطي للخطوبِ ?
أمدحُ المثرين طنـاً بهمُ ربما يُقمر الظنُّ الكذوبِ
كلُّ وغدِ الكفِ منبوذِ الحيا طيِّبِ المحضرِ مسبوبِ المغيبِ
يمنع الرّفدَ ونَلْقى ومده قِحَةُ البخلِ بإدلالِ الوهوبِ
يطلبُ المدحَ لأن يفضحَهُ وهو هلَ المدحِ مستورُ العيوبِ
قلتُ للآمال منه كذبَتْ أمّه : إن كنتِ آمـالي فخيبي
جلَبَ الأرض عريضٌ دونه وسُرى العيس وإدمانُ اللّغوبِ
وغلامٌ آخذٌ مـا طلبتْ نفسه أو فـائتٌ كل طلوبِ
يقمحُ الضيمَ ولو أبصرهُ ليله العِشرِ على الماءِ الشّروبِ [1]
ما أذلّ الخصبَ في دارِ الأذى وألذّ العزّ في دار الجدُوبِ
يا بني كلَّ نعيمٍ ضاحكٍ في حمى وجهٍ من اللؤمِ قطوبِ
قـد ملِلْنا كمْ على شارتـكم ويضيقُ الصدور في البيتِ الرحيبِ [2]

---

١ – يقمح : يقال : قمح البعير إذا رفع رأسه عن الشرب كارهاً له.
٢ – إشارة الحسن والزينة .

وعسى الدنيا التي أدّتكمُ تصطفينا من بينها بنجيبِ
ما جدا الشيمةِ سهلٍ ليلُه للقِرى صبٍّ الى الحمدِ طروبِ
يكسِبُ المالَ لأن يُتلفهُ والعلا في يدِ متلافٍ كسوبِ
تتخبّثُ الأيدي وفي راحتِهِ من نداه أرحُ المشتَقِ المطيبِ

هذا هو مهيار في مديحه شاعر جمع خصائص الشعراء جميعهم، ولم يحد عن عمود الشعر القديم، ولعل اكثر ما يلفت نظرنا في شعره طول النفس والبراعة في اختيار البحور الشعرية والاشارات التاريخية التي تحفل بها قصائده أيما احتفال. ومهما يكن من أمر فهو بحق خير مثال للشعراء المرتزقة في زمانه وفي كل زمان.

الرّثاء

الرثاء كالمديح ، جوهرهما واحد . فهذا مدح الأحياء من الناس ، وذاك مدح الأموات منهم . ولئن كان المديح في معظمه تدجيلاً ونفاقاً فالرثاء في معظمه صدق ووفاء . والسبب في ذلك بسيط وجلي . فالشاعر الذي يهمه الحصول على الجائزة يتلاعب حب المال بعواطفه ، فكلما كانت رغبته في المال شديدة ملحة ، كانت مغالاته في المديح أوفى وأوفر . ونحن في تمرسنا بالشعر العربي قديمه وحديثه ، لا نعثر في المدائح ، إلا على عدد ضئيل من القصائد التي نظمها قائلوها إعجاباً بممدوح ما ، وإكباراً لما يتحلى به من حلو الشمائل ، مجردة عن كل هوى مادي ، إلا المحبة والمحبة وحدها. أما الرثاء فحاله غير حال المديح في هذا القبيل. إذ أن الشاعر عندما يرثي فلاناً من الناس ، فإنما يرثيه لأنه حزن حقاً على فراقه ، وهو يعلم كل العلم ان الرثاء لا يجزى ، بل الرثاء ما هو في الواقع إلا ضرب من الوفاء وجزاء الإحسان . وعلى هذا فإننا نرى الطاقة العاطفية اكثر وفرة في الرثاء منها في المديح . ونرى من جهة ثانية أن أكثر الشعراء الذين مدحوا ، إن لم أقل

كلهم ، نادراً ما رثوا ممدوحيهم ، إذا ما توفوا قبلهم . وهذا دليل آخر على أن المديح لم يكن وليد عاطفة أصيلة في فؤاد الشاعر ، بل على العكس ، قد يكون الشاعر يَكنّ الإحتقار والإزدراء لممدوحه ، ومع ذلك ، فهو يزعم أنه شقيق البدر وند الأسد ، وبحر الكرم ، وما شابه ذلك من النعوت التي تدغدغ النفوس البشرية . أما الرثاء فهو المحك الأصيل لمعرفة إخلاص أي إنسان لأي إنسان آخر ؛ وغالباً ما يكون هذا الإخلاص وليد العاطفة الصادقة والشعور الحقيقي مجرداً عن كل علاقة مادية .

والرثاء قديم قدم الوجود . فمنذ كان الإنسان ، ومنذ كانت الحياة وكان الموت ، كان الإنسان يشعر بالكآبة على فقد عشيرة. هذا في المجتمعات البدائية ، فيعبر عن ألمه ولوعته بطرق خاصة ، كان البكاء أولاها . وتطورت المجتمعات البشرية ، وتطورت معها العادات في التعبير عن الأحزان لفقد عزيز ما والعرب كغيرهم من الشعوب ، عرفوا الرثاء بمختلف أنواعه ، من ندب وتأبين ، وتفجع . أما الشعراء منهم فقد بكوا ورثوا كثيراً لأنهم ناس أيضاً ، والناس معرضون دائماً للأحزان كما هم معرضون للأفراح . وهكذا إذا نحن ما عدنا إلى أقدم شعر عرفناه عن العرب الجاهليين، وجدنا أن الرثاء عنصر هام فيه ،لا بل هو أبرز العناصر التي تكوّن ذلك الشعر فمنذ المهلهل إلى الخنساء ، إلى متمم بن نويرة إلى العصر الإسلامي الأموي وفيه جرير الى العصور العباسية ، وفيها مشاهير الشعراء الذين أبدعوا في سائر أبواب الشعر ، وبرع نفر

منهم براعة تامـــة في الرثاء ، كأبن الرومي والمتنـــي وأبي فراس ، والشريف الرضى ، ومهيـــار الديلمي الشاعر الذي نقف هذه الدراسة عليـــه ، منذ هؤلاء جميعـــاً إلى العصور الحديثة وما بعدها ، مـــا توقف سيل الدموع ، ولن يتوقــف ما دام هناك حيـــاة وموت ، وما دام هنـــاك أناس يحيون ويموتون . ولنكن اكثر تقصياً في البحث فنتساءل ، أليس البكاء على الطلول نفسه نوعاً من الرثاء ؟ فاذا كان الامر كذلـــك ، أمكننا القول أن أول شعر عربي وصل إلينا، كان الرثاء لحمتــه وسداه، فمنذ امرىء القيس، الى سائر الدين قلدوه ، وهم يقفون على الطلول ويبكون ويستبكون ، والتعبير الشهير الدي قيل في امرىء القيس ، معروف عند سائر المشتغلين بالأدب ذلك .. أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى .

هكذا نرى ان الرثاء مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحبة الصادقة ، وبالاخلاص والوفاء ، وهكذا كادت المراثي العربية في اكثرها جميلة الوقع تفيض أسىً وحزناً ، ولا عجب في ذلك ، فالعاطفة الصادقة لا بد لها من الظهور بلفظ صادق جميل ، لا سيما إذا علمنا ان الدين رثوا إنما كانت تربطهم بمرثيهم صلات متينة الأواصر ، كأن يرثي أحدهم أخاه أو أباه أو ولده أو أخته أو والدته ، أو أحد أصدقائه المقربين ، او أحد أولي الشأن الدين عرفوا بالفضل والمكارم . لقد كان إذن يصدر عن فؤاد محب ودود ، وهذا ما يؤكد مرة ثانية أن الرثاء من أكـــثر الأبواب الشعرية دلالة على قائله ، ففيه التجرد ، وفيه انطلاق النفس على سجيتها في التعبير

عما يختلج في حناياها من مشاعر صادقة مخلصة .

وشاعرنا الديلمي عرف الصداقة الحقة ، وأحب اصدقاءه ، وأخلص لهم الود. فكان من الطبيعي، وهو البار بهؤلاء الأصدقاء ان ببكيهم ، وأن يحزن لفقدهم، وتبدو هذه الناحية أكثر جلاءً ووضوحاً إذا ما ربطنا الرثاء بالأدب الباكي الذي عرفه مهيار في بداية معالجته القريض . وقد رأينا ذلك في بكائه على آل البيت وتفجعه عليهم . ولم يكن هذا البكاء شأن مهيار وحده ، بل هو تيار اختطه شعراء الشيعة عامـة . ومهيار كما عرفنا أيضاً شاعر غزير المادة أجاد في سائر ضروب الشعر ، حتى في تقليد الشعراء المجيدين ، فكان من الطبيعي أن يجيد في الرثاء، وهو كما قلنا اكثر ضروب الشعر دلالة على وفاء صاحبه وصدق شعوره. وهكذا إذا نحن عدنا إلى مراثي مهيار، نرى كيف أن الشاعر يجيد إجادة كلية في تصوير المصاب ، وفي تصوير شعوره به . فإذا الأرض مظلمة باكية شاكية ، وإذا الكواكب كاسفة ، وإذا الجبال الراسيات وقد رعرعت هولاً ووجلاً. المجـد لف في كفنه والكرم سار إلى رمسه ، والشجاعة والحمية وسائر الخلال الكريمة تحمل على الأكف لتوارى في الثرى ، فيبـكي الشاعر ويبكي ما طاب له البكاء حتى يستدر الرحمة والشفقة ويدفع الناس دفعاً إلى مشاركته في أحزانه واشجانه .

نحن نعلم أن مهيار تمرس بالرثاء منذ أن بدأ معالجة القريض ، ذلك أنه وقف قسماً وافراً من شعره على رثاء أهل البيت ، ولقد ذكرنا أيضاً في بداية الكلام عن المديح في شعر مهيار أن أصدق

لقب موجز يمكن أن نعرف به الشاعر الديلمي قولنا : أنه مداحة نواحة ، فهذه المسحة الباكية عرفناها في أكثر شعره ، ونستطيع القول في الجيد من شعره على الإطلاق . ومن الذين مدحهم مهيار بالإضافة إلى مراثيه العامة في الهاشميين : الشريف الرضي ووالده أبو أحمد الموسوي ، والكافي الأوحد ، والفقيه أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي ، وأبو الحسين أحمد بن عبدالله ، وأبو الحسين بن الناصر العلوي خال الشريفين السيدين الرضي والمرتضى ، وكان قد توفي فجأة ، هؤلاء وغيرهم نفر من الناس ممن أحبهم الشاعر فأراد أن يكون باراً بهم بعد مماتهم وفياً لهم .

أما اكثر المراثي صدقاً في العاطفة وأوفرها تفجعاً وحزناً فتلك التي قالها في آل البيت ، وفي الحسين بن علي منهم على الوجه الأخص . فالشاعر في مراثيه تلك ، وهي كثيرة في ديوانه يذوب رقة وعاطفة ، وإذا به مفعم الفؤاد بالأحزان فياض المآقي بالدموع ، يتفجع على الشهداء من آل هاشم ، ولا تفجع الثكلى على ولدها ، وقد مر بنا طائفة من شعره الرثائي هذا في كلامنا عن « مهيار شاعر الشيعة » ولن نعود اليه مرة ثانية .

أما المراثي الباقية التي قالها في أفراد آخرين ، فقد كانت على الجملة رائعة في نسيجها ، معبرة في ألفاظها ، فإن الشاعر الديلمي كان ماهراً في اختيار الأوزان الموحية بالأحزان ، كما أنه كان صادق العاطفة في رثائه . ولعل أبلغ مراثيه وأجلها تلك التي قالها في استاذه الشريف الرضي . ولقد رأينا الأواصر

الشديدة التي كانت تشد مهيار الى الشريف ، ولقد مرّ بنا ما للشريف من أيادٍ وأفضال على مهيار . فهو الذي تعهده منذ حداثة سنه ورعاه خير رعاية ، وهو الذي قاده في طريق التشيع ، وهو الذي خصه بالكثير من عطفه ورأفته . ولقد كان لكل هذا أعظم الأثر في نفس مهيار ، فقد كان كلفاً باستاذه ، شديد المحبة له ، شديد الاعجاب به . أضف الى ذلك صلة الرحم تلك التي كانت تشد الشريف بآل البيت ، كل هذا جعل الشريف في عيني مهيار ، خير رجال زمانه وأفضلهم حتى إذا ما مات شعر بذلك الفراغ الرهيب الذي أحدثه ، وشعر بعظيم الحاجة إليه ، ففاضت نفسه ترثيه بشعر لعله اجمل ما قيل من مراثٍ في الشعر العربي كله . شعر يصور لك هول الفاجعة ، ووقع الخطب في النفوس ، فالعيون واجفة والأبصار خاشعة ، والأرض تكاد تزلزل بمن فيها ، ولا ينسى أن يُعرّضَ في مراثيه بأعداء الشريف ، وقد خُيِّل إليه أنهم قد شمتوا به . وهذه مختارات من مرثيته الدالية يقول فيها :

أقريشُ ، لا لفمٍ أراك ولا يدِ
فتواكلي ، غاض النّدى وخلا النّدي

بكر النعيُّ فقال : أرْديَ خيرُها
إن كان يصدق فالرضيُّ هو الردي

مَنْ راكبٌ يسعَ الهمومَ فؤادُهُ
وتُناطُ منه بقارحٍ متعوّدِ

قرّبْ قرُبْتَ من التلاع فإنها
«أم المناسك» مثلُها لم يُقصَدِ

دأباً به حتى تُريحَ «بيثربِ» فتنيخهِ نقضاً بباب المسجدِ[1]

واحثُ التراب على شحوبك حاسراً
وانزل فعــزّ «محمداً» «بمحمدِ»

وقل : «انطوى حتى كأنــك لم تَلِدْ
منــه الهدى ، وكأنه لم يولَدِ

بكت السماءُ له وودت أنها فقدت غزالتَــها ولمّا يُفقَدِ

والأرضُ وابن الحــاجِ سُدّت سبله
والمجدُ ضيم فمــا له من منجــدِ

وبكاك يوُمك إذ جرت أخبــارُه
ترَحــاً وسُمّيَ بالعبوسِ الأنكدِ

صبغتْ وفاتك فيــه أبيضَ فجرهِ
يا للعيونِ من الصــباح الأسودِ

قد كان لي بطريفِ مجدك سلوةٌ عن سالفٍ من مجد قومك مُتلدِ

تزداد طولاً ما استرحت فإنني أرثيك بعدُ وحرقتي لم تبرُدِ

ماءُ الأسى متصببٌ لي لم يَغِضْ في صحفِ خدٍّ بالبكاء مُخدّدِ

لا غيّرتكَ جنَائِبٌ تحتَ البِلىَ
وكساك طيبُ البيت ، طيبُ المحتد

هذه زفرةٌ حرّى يصعدها صدر ملتاع على من كان له سنداً وعوناً وعلى من برّه وأحبّه. الحزن بادٍ في كل كلمة من كلماتها ، والصدق ينبض في كل بيت من أبياتها ، وهل أبلغ وأجمــل من

---

[1] النقض : المهزول من السير ناقة كان او جملا .

قول مهيار :

بكر النعي فقـــال أردي خيرهـــا
ان كان يصدق فالشريف هــو الردي

وهل اكثر اثارة للاحزان من قوله مخـاطباً الراكب الذي ينيخ بيثرب :

واحث التراب على شحوبك حاسراً
وانزل فعــزّ «محمداً» «بمحمدٍ»

لم تكن هذه المرثية في الشريف هي الطريق الوحيد لتنفيث كربة الشاعر بل كان هناك مرثية اخرى فيه ايضاً ، لا تقل عن هذه صدق عاطفة وروعة أداء ، ولا عجب في ذلـــك فالقول الصادق وليد العاطفة الصادقة المحبة وعلى هذا فإننا نرى الشاعر دائماً يغالب الأحزان ويجالد الكآبات، ولكنها تطغى عليه فتملأ قلبه أسىً ، وتملأ مآقيه دمعاً ، فيخيل إليه أن الكون في دوار، وان فراغاً هائلاً قد حدث بموت المرثي، ولاسيما اذا كان كالشريف الرضي، وما أثر عنه من عزة وتعفف وإباء ، اضف الى ذلك شرف محتدٍ وطيب أرومة وبراً ورأفة بالشــاعر وحدباً عليه أكيداً . فإذا بالمصاب الفادح يصيب قريشاً ، فيصدع بنيانهـــا ويزعزع أركانها فيخبو الكوكب المضيء، وتظلم الدنيا من بعده ، وهكذا يمضي مهيار في تصوير الخطب العظيم مؤمناً كل الإيمان بكل كلمة يقولها :

من َجبّ غاربَ «هاشمٍ» وَسنامَهــا
وَلوَى «لُؤَيّاً» فاستزّلّ مقــامَها

وغزا «قريشاً» «بِالبطاح» فلفّها
بيدٍ وقوّض عِزّها وخيامَها

صدعَ الحِمامُ صَفاةَ آل «مُحمدٍ»
صَدْعَ الرداءِ به وحل نظامَها [1]

بالفارس «العَلَوِيّ» شقّ غبارَها
والناطق العربي شقّ كلامَها

سلبَ العشيرة يومَه مِصباحَها
ورمى الرّدى عمّالها علّامَها

ابكيك للدنيا التي طَلّقْتَها
وقد اصطَفَتْكَ شبابَها وعُرامَها [2]

فتركْتَني تركَ اليمينِ شمالَها
فرداً أعالجُ فاتلاً إبرامَها

حيرانَ أسألُ : أين منك رفادتي
دَهِش البنان تفقدت إبهامَها

لا سامعٌ يصغي ولا ذو قولةٍ
أصغي له ، يا وَحْدَتي ودوامُها

فبرغم أنفي ، أن أبُثّك لوعتي
والأرضُ قد بثّت عليك رُغامَها

لأساهرنّ الليلَ بعدك حسرةً
إن ليلُ عابت حزيناً نامَها

ولأبدلنّ الصبرَ عنك بقرحةٍ
في الصدر لا يجد الدواءُ لحامَها

أبكي لأطفئها واعلمُ انني
بالدمع محتطبٌ أشبُّ ضِرامَها

---

١ – الصفاة : الصخرة الصلبة .
٢ – العرام : الشدة .

عصرَ الغمام ُ ثراك ثم سقَى به أرضاً تظلّم ُ مذ ُ فقدت غمامَها

بك أو بجدك أو أبيك نفاث في السُّقيا إذا الشهباءُ خفنا عامها

فسواك لو كان المقيم ُ بحضرة

يَبَس لقلت : سقي السحابُ رمامَها

لقد كان رثاء مهيار عاطفياً في اكثر الأحيان ، والسبب كما قلنا فيما سبق أن الأشخاص الذين رثاهم مهيار ،كانوا بالاضافة الى عزتهم وفضلهم يودونه ويحسنون معاملته ، ويبدو أن هذا الديلمي كان كثير الوفاء ، سريع الإنفعال ، فإذا غيّب الموت واحداً من اولئك الخلصاء ، فاضت نفسه أسىً ، وأن فؤاده موجعاً . وأكثر ما يبدو حزنه هذا ، واكثر ما تتجلى إجادته في الرثاء في رثاء الفقيه « أبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي ، وكان فقيهاً في بغداد ، وكان عظيم الإيجاب له والحرص على مودته » .

عاتبْتُ دهري في الجناية لو وعَى

ونشدتُه الحُرَمَ الوكيدةَ لو رَعى

وطلبتُ منه بسلمه وبحربه نصَفاً فأعيا حاسراً ومقنّعا

من ساءه صممُ المسامع انني «يوم العروبة» ساءني أن أسمعا [1]

ونعى «أبا بكر» إليّ صباحها لسفاهه لو كان يعلم من نعى

يومٌ على الاسلام قبلك فرحةٌ ويكون بعدك حسرةً وتفجّعا

وشككت إذ حملوك غير مدافع

بيد فخطّوا في الثرى لك مَضْجعا

---

١ — يوم العروبة : يوم الجمعة وهو من الاسماء القديمة تعريب : أربا النبطية أو عروبتا السريانية .

يا من عهدتُ العزّ فوق جبينه — من رابَ عِزَّك فاقتضى أن يرحعا

مالي وكنتُ بربع دارك آنساً — أمسيتُ منه موحَّشاً متفرّعا

فلأبكينّك من فؤاد ناصحٍ — في الحزن، إن حفنٌ بكى متصنّعا

رفقاً بقلبي، يا زمانُ فإنه — صُلبُ العصا ما أنّ إلا موجعا

راميتي فاترك لكفي ساعداً — يُصمي الرمية أو لكفّي منزَعا

لو كان من أخْـذ الردى منّي له

عوضٌ أطال على الردى أن يجزعا

أو كنتُ أبكيـه وأكْحلُ ناظراً

بنظيره مـا بلّ مني مدمعـا

وهكذا نرى الشاعر يعظم الخطب حتى كأنك تحس به حقيقة ، كأنك تشهد الفاجعة بأم عينك، فتشاطر الشاعر ألمه في مصابه . ومن أبلغ مراثي مهيار وأكثرها افاضة حزنٍ رثاؤه للكـافي الأوحد أبي العباس . ففي هذه القصيدة ندب وتأبين وعزاء . فالشاعر حزين جداً ، فلذلك يصور لوعتة وألمه ، وهو بعد ذلك يعدد صفات الميت ومآثره ، فاذا به ترب الندى ورب الشجاعة وصنو الكرم ، واذا بالكون يكاد ينفطر أسىً لفقـده ، وإذا بالكائنات تكاد تذوب لوعة وحزناً . وينتهي الشاعر من ذلك كله الى تعزية ابن الفقيد ، وكان يدعى سعداً ، ويشير إلى أنـه قادر على ملء الفراغ الذي أحدثه موت أبيه ، فليطمئن الفقيد في رمسه :

ما للدُّسوتِ وللسّروج تسائلُ — من قائمٌ عنهن أو مِنْ نازلُ

لَمْ يُسدَّ بابُ الملكِ وهو مواكبُ
وحلَتْ مجالسهُ وهنَّ محافلُ
ما للجيادِ صوافِناً وصوامتاً نُكُساً وهنَّ سوابقٌ وصواهلُ[1]
من قطرِ الشجعانِ عن صهواتِها
وهُمُ لها تحت الرماحِ أجادلُ[2]
ما للسماء عليلةٌ أنوارُها لِمَ السماء من الكواكب ثاكلُ ؟
مَنْ لحلج الناعي يحدّث أنه
أودى فقيل : أقائلٌ أم قاتلُ ؟
المجد في حدثٍ ثوى أم
كوكب الدنيا هوى أم ركن « ضبّه » مائلٌ ؟
ما كنت فيه حاذقاً انّ الردى
من عزّ جانبه اليه واصلُ
أبكيك لي ولمرملين ننوهم الـ أيتامُ بعدك والنساءُ أراملُ
ولمستجيرٍ والخطوبُ تنوشه مستطعمٌ والدهر فيه آكلُ
ولِحِ الحِمامُ إليك باباً ، ما شكا غير الزحامِ عليك فيه داخلُ
لم يُغنِكَ الكرمُ العتيدُ ولا حمى
عنك السماحُ ولا كفاك النائلُ
يا ثاوياً لم تقضِ حقّ مصابه كبدٌ محرّقة وجفنٌ هاملٌ
أفديك لو أن الردى بك قابلٌ من مهجتي وذويّ ما أنا باذلُ
فاليومَ أشكركَ الصنيعَ مراثياً
خرسَ المثيّبُ عندها والغازلُ

١ — الصوافن من الخيل . الواقفة على ثلاث وطرف حافر الرابعة .
٢ — قطّر . ألقى

تصف الغليل! بنا ُتها أبياتها الـ   أيتامُ وهي عليك أمْ ثـاكلُ
يا ليتُ لا يبُعدْ حماك إن خلا   منك العرينُ فإن ِشبْـلك باسلُ
ِطبْ في الـثرى نفساً فوفدُك حولـه
زمـَرَ الثناءِ ورتـعُ مجوك آهـلُ
لا تحسبنّ و«سعد» ابنك طالعٌ   يحتلُ برَجكَ أن سعدك آفلُ
ما انكر الزّوارُ بعدك وجهه   في البدر من شمس النهار مخايلُ
أجمِل له « يا سعدُ » واحمل وزره
ما طـال باعٌ أو أطاعك كاهلُ

هذه نماذج فيها الخبر اليقين عن مراثي مهيار فهي في مجملها زفرات نفس والهمة ، وأنات قلب جريح وآهات صدر مفعم بالأحزان والشاعر في مراثيه يغرف من بحر فياض ، فإذ بالأبيات تترى ، والقوافي تتوارد توارد الأفكار في خاطر الشاعر وتوارد العواطف في قلبه. وأرى من المفيد أخيراً أن أورد رثاءه في أبي الحسين أحمد بن عبدالله وإن كان لا يخرج في جوهره عن هـذه المراثي جميعها ، ولكنه يحتوي على الشيء الكثير من العاطفة الصادقة ، ومن البراعة في الأداء ، ونكون بذلك قد استنفدنا تقريباً أهم العناصر التي تتميز بها مراثي الشاعر الديلمي . وأبو الحسين هذا « كان من معادن الفتوة الغريبة ومظان الكرم العجيبة وجامعا للدين وللمروءة والفضل والرياسة ، واتفق قبل موتـه بسنين قلائـل انتساج مودة بينه وبينه سبق خبرها ، بدأ أبو الحسين بخطبتها، وقصده راغباً، وتبرع بضروب التفقد واصناف من الرعاية تبعُدُ على كثير من ابناء الزمان الفطنةُ لهـا ، فعمل

هذه القصيدة يرثيه ، وتوفي بواسط في شوال سنة ثلاث عشرة واربعماية . وتمتاز هذه القصيدة عن المراثي السابقة بأنها تحتوي على شيء من الحكمة والتبصر في شؤون الحياة والموت ، ويبدو أيضاً أن الشاعر قد نهج فيها نهج المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة في تكذيب الخبر الناعي وفي تعظيم الخطب . ويختتمها الشاعر باستنزال الرحمة والاستسقاء لقبر الشاعر على عادة العرب الأقدمين . واليك بعض ما ورد في تلك القصيدة :

نعم ! هذه يا دهرُ أمُّ المصائب
فلا تُوعِدَنّي بعدها بالنوائبِ
سل الموتَ : هل أودعتَهُ من ضغينةٍ
تَنَقَّمَ منها فهو بالوِترِ طالبي [1]
لهُ كلَّ يوم حولَ سَرْجِيَ غارةٌ
يشرّد فيها بالصفايا النجائب
سُلافةُ إخواني وصفوةُ إخوتي
ونُخبةُ أحبابي ونُجلُ قرائبي
سدَدْتُ فمَ الناعي بكفي تطيّراً
ولوّيتُ وجهي عنه ليَّ مغاضِبِ
وقلتُ : تبيّنْ ما تقولُ لعلّها
تكون كتلك الطائراتِ الكواذبِ

---

١ – الوتر : الثأر

فلمّا بـدا لي الشرّ في كرّ قوله
وربطتُ تَوازي أضلعي بالرواجب [1]

فقيدٌ « بميسان » استوت في افتقاده
مشارقُ آفاق العُــلا بالمغاربِ [2]

تُنافثُ عن حمرِ الغضا نادباتُـهُ
كأنَّ فؤادي في حُلوقِ النوّادبِ

بكت أدمعاً بيضاً ودمّت حباهها
فتحسَبُهــا تبكي دماً بالحواجبِ

هوَتْ هضبةُ المجدِ التليدِ وعُطّلت
رسومُ الندى انقضّ نجمُ الكواكبِ

عجبتُ لهذي الارض كيف تلمُّنا
لتصدَعنا ، والارضُ أمُّ العجائب

تطارِدُ عن ارواحِنا برماحِنــا
وتطربُ من أيامنـا للحرائب .

وتسحَرنا الدنيــا بشبعةِ طاعمٍ
هي السّقَمُ المُرْدي ونهلةِ شـاربِ

أحَدِّثُ نفسي خاليــاً بخلودها
فأينَ أبي الأدنى وأين أقــاربي ؟

ولا كنتُ إلا واحداً من عشيرةٍ
ولا باقياً في الناس إلا ابن ذاهبِ

---

١ – الرواجب : جمع راجبة وهي المفاصل التي تلي الانامل .
٢ – ميسان : اسم مكان بين البصره وواسط

إذا كان سهمُ الموتِ لا بدَّ واقعاً
فياليتني المَرميُّ من قَبلِ صاحبي

سلامٌ على الافراحِ بعدكَ إنها
— وان عشتُ — ليست إربةً من مآربي

سقتكَ بمعتادِ الدموعِ مرشّةٌ
أفاويقُ لم تُخدجِ بلمعةِ خالبِ [1]

إذا عُمّمت جَلحاءُ أرضٍ بوَبلها
غدت روضةً وفراءَ ذات ذوائبِ [2]

هذا هو مهيار في مراثيه ضخم العبارة ، رقيق العاطفة يضفي على المصاب الكثير من العظمة والرصانة والحزن ، فيهول الخطب ويعظم النازلة . ولعل مرد ذلك إلى شعوره الصادق بالمصاب . ولقد سيطرت العاطفة سيطرة تامة فى مراثي مهيار ، فإذا بها مختلفة كل الإختلاف عن مدائحه . ففيما نراه في هذه مداجياً غير صادقٍ ، نراه في تلك يذوب حزناً ولوعة . وفي هذا الحزن الشديد على مرثيه دلالة على وفاء الشاعر لمن عطفوا عليه واعتنوا به . ولقد كانت مدائحه في مجملها تتفق وجلال الموقف ، فإذا بحورها مختارة منتقاة توحي باللوعة والاحزان ، وإذا بالشاعر يلج الموضوع مباشرة دونما لف ودوران كما كان يفعل في مدائحه

---

١ — الأفاويق : ما احتمع من السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة
لم تخدج : لم يقل مطرها
٢ — الجلحاء : الارض التي لا نبات فيها

وهناك ميزة تختص بها مراثي مهيار وهي أنها من أطول المراثي التي عرفها الشعر العربي ، ولم تكن على كل حال أطول القصائد التي نظمها مهيار . فمهيار هو ثاني اثنين في الشعرالعربي ممن أثرت عنهم القصائد الطوال ؛ هو وابن الرومي ، ولعل مهيار اكثر اطناباً وإسهاباً من الشاعر الرومي . وعلى الجملة نستطيع القول: إن مراثي مهيار ، في لحمتها وسداها ، من المراثي الرائعة فيالادب العربي .

مهيار وفنون الشعر الأخرى

ورد في كلامنا على ديوان مهيار ، أنه من أطول الدواوين الشعرية عند العرب . ولا بد إذن لصاحب هذا الديوان من أن يتناول كثيراً من الموضوعات الشعرية . فبالإضافة إلى بعض الموضوعات التي درسناها دراسة مفصلة كالشعوبية والتشيع والمديح والرثاء والغزل هناك أبواب أخرى أقل نصيباً من تلك في الوفرة والإجادة. فإن أنت سرحت نظرك ، في ذلك الديوان الضخم ، وشئت أن تخرج منه بتصنيف للموضوعات التي لفتت نظرك ، فلا بد لك في أن تعنى بالاضافة لما ذكرناه بالهجاء والوصف والتشكي والألم والفخر والحكمة ، وغير ذلك مما تراه مشتتاً في أبيات تلك القصائد الطوال .

ونحن في الماعنا إلى هذه الموضوعات الفرعية لن نتوقف طويلاً عندها ، بل سنعطي القارىء فكرة عامة عنها ، علها تساعد على إكمال الصورة التي رسمناها لهذا الشاعر المكثار . ونصيب هذه الأبواب من القيمة الفنية واحد والأبواب التي أسهبنا في الكلام عليها .

أما الهجاء فلم يكن باع مهيار طويلاً فيه ، وقد لا تعثر في ديوانه الضخم على قصائد هجائية مستقلة ، وإنما كانت أهاجيه تأتي في تصاعيف مدائحه ، وقد تتناول الدهر أو الأثرياء البخلاء ، وقد مر بنا بعض هذا الهجاء فيما تقدم . وهجاء مهيار متعفف بعيد كل البعد عن الاقذاع الذى عهدناه عند مشاهير الشعراء الهجائين .

والوصف في شعر مهيار متوفر إلى حد ما . ولا عجب في ذلك ، فالشاعر ذو خيال رحب يمده بالصور الجميلة والخيالات المبتكرة ، يعينه في ذلك نفس شعري طويل ، لا يضاهيه إلا نفس ابن الرومي كما قلنا ، فيقلب الموصوف على سائر وجوهه حتى يستنفد سائر أوصافه . أضف الى ذلك تأثير البيئة التي عاش فيها مهيار ، وهي بيئة حضرية مترفة ، فيها الدور الغناء والحدائق الزاهرة والأجواء الصافية مما يرقق العاطفة ويرهف الحس . ومن روائع وصفه « وصف دار » اتخذها بعض أصدقائه من اولاد الكتاب والرؤساء له مسكناً ، وقد كان في وسطها بركة مثمنة يتوسطها عمود عال في صورة الأسطوانة ، ينزل اليه الماء من حوض مشرف مرفوع بناؤه على سماء البيت . ويخرج الماء من هذه البركة إلى بستان في صحن الدار متناهٍ في الحسن فيه صفوف النخل والسرو وغير ذلك من الشجر ، وانواع الرياحين والزهر فقال مهيار يصفها وصفاً دقيقاً في قصيدة طويلة رائعة :

وفيحاءَ من دورهم زرتُها وأخلِق بها جنةٌ أن تُزارا
تلجلَجَ في وصفها المحدثون وحدّث «رضوان» عنها فحارا

تقرّبَ قاسمُها عادلاً ... فخطٌّ وتحسبه العينُ جارا
صحوناً طِوالا كما تقتضي ... شجاعتنا وحصودا قِصارا
وَشقٌّ لبستانها عن ثرى ... إذا طلعَ النبتُ فيه أنارا
وتجلو عليك نبات الفسيل ... إذا كست السّعفاتُ الثّمارا [١]
غدائرُ غيدٍ يُضفّرنَها ... وتأبى عليهن إلا انتشارا
جلبنا له الماء من شاهقٍ ... حزاما بحسب الصعود انحدارا

وفي هذه القصيدة بالذات يصف مهيار مجلس خمر ، فإذا به خبير بأصول المنادمة على الشراب ؛ يجيد تصوير الحالات التي تطغى فيها ابنة الكرم على الالباب فمن ذلك قوله :

نديمي وما الناسُ إلا السُكارى ... أدِرْها ودعني غداً والخُمارا
من العجز تركُ الفتى عاجلا ... يُسَرُّ لأمرٍ يُخافُ انتظارا
وعطّل كؤوسك إلا الكبير ... تجد للصغير اناساً صغارا
وخادَعه عن خلوقيّةٍ ... تذوبُ في كأسها الجلّنارا [٢]
جنت فقر شرّابها المسلمين ... وأغنت بعمّى اليهود التجّارا [٣]
عقرْنا البدورَ لهم في المهو ... ر حتى جلَوها علينا عقارا [٤]
يطوف بها عاطلُ المعصمين ... يُلبسهُ الجامُ منها سوارا
هنيئاً للهوى اني خلو ... تُ حلمي له وتركتُ الوقارا
وصرتُ فتى غبقاتِ الملوك ... عشيّاً، أخا النشوات ابتكارا [٥]

---

١ — الفسيل : جمع فسيلة وهي الصغيرة من النخل .
٢ — خلوقة : نسبة الى الخلوق وهو نوع من الطيب.
٣ — عمى قرية في نواحي بغداد .
٤ — البدور: جمع بدرة وهي الكيس يسع عشرة آلاف درهم.
٥ — غبقات جمع غبقة وهي شرب العشي .

والوصف كثير في شعر مهيار، فقلما خلت منه قصيدة، وفيه الجيد كهذه القصيدة التي سقنا بعض أبياتها، وفيه الغث المتكلف. واعتقد أن هذين النموذجين يكفيان للدلالة على مقدرة مهيار في تصوير الحالات التي يمر بها والأشياء التي يراها.

وهناك مظهر ثالث يلفت الانتباه في شعر مهيار هو الفخر. فالشاعر كما نعلم من اسرة وضيعة، وهو بالاضافة إلى ذلك من الموالي، فميدان الفخر عنده ضيق محدود، فلجأ الى نفسه بادىء ذي بدء يرضي غرورها بأن شعره أفضل شعر قيل، وانه ذو لب عاقل حصيف، وانه رجل فاضل لا يدانيه في ذلك أحد.

أنا الجاري اذا الحلبات طالت مراكضُها على الخيل العتاق
نفضتُ طريقها شوطاً فشوطاً وسُلّم لي بها قصبُ السباقِ
فمن ذا يبتغي في الفضل سبقي وقد يئس السوابقُ من لحاقي

إلى أن ثارت في نفسه مشاعر العنصرية الفارسية، فأخذ يفخر ببني قومه، ويفاضل العرب بهم، وما لبث أن ربط نسبه بأنساب الأكاسرة منهم كأردشير وانوشروان، وأفاض في هذا الميدان أيما إفاضة، وقد سقنا قسماً من مفاخره الشعوبية في كلامنا عن «مهيار شاعر الشعوبية»، كما أننا أشرنا إلى إدلاله بشعره في حديثنا عن «المديح في شعر مهيار». ولكن ما يجب أن يقال، هو أن مهيار كان يجيد في فخره إجادة تامة، فجاءت مفاخره متينة السبك فخمة العبارة جزلة الأداء. أما الشكوى والعتاب فكثيراً ما تردد صداهما في شعر مهيار، ومذكيات الألم عند مهيار جمة وفيرة، فهو منذ أن التزم حب آل البيت،

كان دائماً مفعم القلب بالأسى والحسرة ، ومنذ ذلك الحين بقي بكاءً شكاءً . يشكو الفقر ، ويشكو الدهر ، يشكو الشيب ؛ ويشكو الحظ العاثر . واصداء الشكوى هذه كأنها كانت تتردد في شعره . وآلم زفرة صعدها ، واكثرها تعبيراً ، هي تلك التي صدرنا بها الكلام على حياته :

عيشٌ كلا عيشٍ ونفس ما لها   من لذة الدنيا سوى حسراتها
إن كان عندك يا زمان بقيــــة   مما يضام بها الكرام فهاتهـا

وها هوذا يشكو الدهر بقوله ٠

ومــــا الدهر إلا داء همٍ مماطل
مدى العيش أو خطبُ هجومٌ مباغتُ

أما الفقر فقد كان يتصوره سبب الشرور كلها . فهـو لذي يذل الانسان ، وهو الذي يبدل حسناته سيئات .

ومن جامع حسنات الخـلال   وقد قبّح الفقر تلك الخلالا

أو قوله في مكان آخر مخاطباً أحد ممدوحيه .

أشكو ظماي، وليس غيرك ساقيـــا
فـامدد يديـك على العــــاد فروني

تعد الغنى عنّي ففم بي مُرغماً   انف الزمان واغنى نتملـّني
ما فات حظي أن مثلي مُمكنٌ   لكن كثرتْ على الزمان فملـّني

واكثر ما شكا مهيار من ذهاب شبابه باكرا فتحسر عليـه وبكاه بكاءً مراً ، حتى انك قلما تلقي نظرة على بعض المطالع الغزلية التي كان يفتتح بها قصائده المدحية إلا وتقع على ذكـــر الشيب والتبرم به . وقد تبينا ذلك في كلامنا عن «الغزل في شعر

مهيار » وها نحن نسوق أيضاً بعض الأمثلة على ذمــه الشيب والنفور منه :

يقولون: عمرالشيب أطول بالفتى ... وماسرّني أني مع الشيب خالدُ

او يقول في مكانٍ آخر يخاطب احد لائميه في الحب :

إن أبكِ امرأً بعد ما فاتني ... فقد بكى قبــلي «يعقوبُ»

وأنكرَ الصبوةَ من شائبٍ ... حتى كأنْ ما صبتِ الشيبُ

وهــل عدَتني شيبةٌ في الحشا ... إذ مَفرِقي اسودُ غــربيبُ

لا لاقطٌ فيها ولا خاضبٌ ... والشيبُ ملقــوطٌ ومخضوبُ

هذه هي بعض الزفرات التي كان مهيار يصعدها متألمــاً ، وكثيرة هي الآلام التي عرفت سبيلها إلى فؤاد الشاعر . ولكنه على كل حال ، تجلد وتصبر ، واجاد تصوير آلامه تلك ، فكانت شكايته بحق صدىً لنفس ملتاعة وفؤاد كسير مشتعل بالهموم والآلام

لقد شاء مهيار الديلمي ان يكون له باع في كل ميدان من ميادين الشعر . او لم ينطق الشعراء قبله بالحكمة فهل يقصر هو في هذا الميدان ؛ وهو المقلد البارع لكل مــا قيل ؟ أضف إلى ذلك الظروف القاسية التي مر بها الشاعر ، فإنها ولا شك ، قــد اكسبته مراناً في الحياة ومعرفه وثيقة بها وهكذا فإنه كان يصدر في حكمه عن معرفة تجريبية خبرها بنفسه وكان معينه الثاني ما وعته ذاكرته ، من اقوال سواه . ومهما يكن من امر فإنه قد وفق إلى ابراز بعض الحالات بأبيات تصح أن يتمثل بها الانسان في عصره ، وفي كل عصر . ومما لا شك فيه انه يقصر

عن المتنبي وعن أبي تمام مثلاً في ميدان الحكمة ، ولكنه أتى في هذا الميدان بالشيء الجميل الخالد . فمن امثاله هذه الأبيات الحكميّة .

إذا سَلِمَ البدرُ التّمامُ فهيّنٌ
على الليل أن تهوي صغاراً كواكبه

وأسلو اذا أبصرتُ جلدي أملساً
وما صحةٌ في الجلد والقلبُ يُجرَحُ

— وَخبِرتُ قوماً قبلَهُ وخبِرْتُه
فعرفت مولى السيف من عبد العصا

— عاقبْتُه بضحكي من ذكْره في المجمعِ

— سريْتها مستأنساً بوحدتي وطالبُ العز قليلُ الرُفقا

— ومن جاوَرَ الغيثَ أنّى أقا مَ يتبعُه الغيثُ أنّى رحل

— فلو قِنَنُ الجبالِ زَحمْنَ جنبي وقعْنَ أَخفَ من منن الرجالِ

— كفى احتقاراً تركي اجابته لو كان مَمّنْ يجابُ لم يقلِ

— وكُلْ إن أكلتَ واطعمْ أخاك
فلا الزاد يبقى ولا الآكلُ

يقول العدوُ ويُصغِي الصديقُ وشرٌّ من القائل القابلُ

— وأصفى خليليك الذي كنتَ تربه
وأحلى حبيبيك الذي هو ولِ

— ما المجد إلا بالعزيمة فاعزمِ من لم يغامر لم يفز بالمغنمْ

والناسُ إما راغبٌ او واهبٌ فاملكهم بالسيفِ وبالدرهمِ

— ما كل حصباء البحار جواهرٌ ولا كل أعضاءِ الجسومِ عيونُ

ـ أرادَ فلَمْ يَبلغْ فماتَ بغيظِهِ
وما كلُّ موتٍ أن يُوارَى فيُدْفنا
وهل سماتُ الحبِّ إلاّ سهرٌ وسَقَمُ
ـ وفي الذشاكي قُبَلٌ مخلوسةٌ تُغتَنَمُ
ـ إذا اشتدّ عاركت ليثاً غضوبا
فإن لان غازلت ظبياً ألوفا
ـ ومن العقائل بالغضا سعدية
تفنى الصفاتُ وحسنُها لا يوصفُ
ـ وخلق كالماء لا بل كاللمى يُرتشَفُ
ـ . . . . وقد تنطقُ العينان والفمُ ساكتُ
ـ . . . لكلِّ غدٍ رزقٌ مع الشمس يطلعُ
ـ . . . . فقلتُ له غيري بمثلك يُخدَعُ
ـ . . . . وما يحفظ اسامةُ لن يُضاعا

هذه هي أهم الأبواب الشعرية التي عالجها مهيار ، وقد كان مجلياً في بعضها ، مقصراً في بعضها الآخر ، فما هي منزلة مهيار الشاعر في سرب الشعراء العرب ؟

منزلة مهيار

مذكيات الشعور جمة وافرة . منها ما يكون راسخاً في اعماق النفس البشرية ، فيدفعها إلى الفرح تارة وإلى الكآبة أخرى فتصدح شادية أو شاكية ، وقد لا تعرف لذلك سبباً . وهذه العوامل وهذه المذكيات كثيراً ما تؤثر فيهـــا عوامل خارجية فتزيدها تأججاً واشتعالاً ، وتدفع الشاعر إلى الانشاد والتغني ، كأن يعشق الشاعر مثلاً ، كأن يُصاب ، كأن يسعد أو أن يحظى بأمير خطير أو بذي سلطان عظيم ليعيش في كنفه آمناً مطمئناً .

ولم يشذ مهيار عن هذا السبيل . فالطاقة الشعرية الكامنة في اعماقه كانت وافرة ، والأسباب التي أذكتها وأورت زنادها كانت وافرة أيضاً . إن الشاعر ينساق دائماً وراء عواطفه ، فهي التي تخط له السبيل فينهجه غير مبالٍ إذا كان خطأً ما يقال ام صواباً . وهذه العواطف يترجمهـــا الشاعر كلاماً منظوماً له في النفوس وقع دونه وقع الكلام المرسل. هذه العواطف تأججت في صدر مهيار ، واشتعلت في نفسه منذ صباه المبكر . وقد مر بنا فيما سلف حبه لآل البيت وبغضه لاعدائهم وحزنه على قتلاهم

وشاهدنا فخره واعجابه بقومه كما اننا قد احطنا بمدحه وغزله ورثائه هذه هي أهم الموضوعات التي يعالجها الشعراء .

ولقد طرق مهيار هذه الموضوعات فأجاد في بعضها ، واسف في البعض الآخر وعالج قسماً منها بشيء من الطرافة ، وعالج أكثرها بكثير من الرتابة . ولا بد من الاشارة إلى قدرة هذه الشخصية على التكيف بحسب الأجواء التي كانت تتعرض لها . فقد كان مهيار يختال ويزهى ويتكبر إذا ما افتخر ، ويتطاول بأمجاد بني قومه حتى يطال قبة الفلك . وكان يتبرم ويسخط إذا ما شكا الدهر ، ويتألم وييئس إذا ما تعرض لنكبة ما . وكان يطرب وييسر إذ يمدح فيعطى ، وكان يذوب رقة وحزناً اذا رثى . وبكلمة مجملة لقد كان يلبس لكل حالة لبوسها . أما شعره فهو في اكثره رتيب مفرط في الاسهاب حتى يمله القارىء في بعض الأحيان ، وهناك بعض الأخطاء العروضية والبيانية المتناثرة في سائر انحاء الديوان . ولقد خلت قوافيه من حروف الخاء والذال والزاي والشين والغين والطاء . وقد يكون لفارسيته أثر في ذلك ، إذ أن هذه الحروف لا توجد في اللغة الفارسية تقريباً . أو أنه اغفلها بدافع من الذوق الشعري ، لأن اكثرها يمجه الذوق السليم .

وختاماً نقول : إن لغة مهيار الشعرية ، كانت أقرب إلى الحضارة منها إلى البداوه ، ولكنه كثيراً ما كان يمزج في شعره بين جفاف البادية ورقه الحاضرة ، فيبدو شعره على شيء من التطعيم ، إن صح القول ، وهذا ما كان يفعله استاذه الشريف .

ولقد كانت لغته في مجملها سلسلة سهلة ، رقيقة جزلة لا تفرط في التعقيد ، ولم تكن متينة الأسر وان كان يلجأ إلى الأبحر الشعرية الفخمة . ولقد كان في غزله يتخذ عرائس شعره من البدويات فيردد الأسماء المأنوسة عند شعراء البادية ولا يحجم عن ذكر الاماكن المأنوسة في البادية ايضاً . ولعل ذلك يعود إلى تأثره بالشريف ، وقد كان ينهج مثل هـذا النهج ، أو أنه يعود الى ذاكرته التاريخية وقد شاهدنا مدى حدتها وخزنها للمحفوظات على اختلافها . وعلى هذا نستطيع القول : ان جمال الإبتكار في شعر مهيار كان محدوداً للغاية. انما كان يجتر ما أثر عن الشعراء الذين سبقوه ، ويتجلى فنه في بعض الاحيان في اختيار اللفظة الموسيقية ، أما البناء التركيبي ، فإنه اتبع فيه سبيل الأبحر الفخمة في اكثر الأحيان ، وقلما لجأ إلى الابحر الخفيفة ولعله رمى إلى إضفاء شيء من الفخامة على شعره ، ولكنه لم يوفق على أية حال ، فبقي شعره ، ولا سيما المدحيّ منه ، وهو أكثر اجزاء ديوانه ، أقول بقي هذا الشعر في مرتبة وسطى بين الركاكة والجودة . أما شعره الغزلي فهو أقرب شيء إلى الرقة والجزالة ويبلغ درجة الفخامة في الرثاء والفخر فقط .

ومهما يكن من امر فإن الشاعر حري بأن يُدرّس لأنه أسهم اسهاماً فعالاً ، بل كان على رأس الحركة الأدبية في أواخر القرن الرابع الهجري وفي مستهل القرن الخامس .

مراجع الكتاب

١ — الديوان — في أربعة أجزاء طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥ م ١٣٤٤ هـ . تحقيق أحمد نسيم
٢ - دمية القصر — الباخرزي طبعة حلب سنة ١٩٣٠ م ١٩٤٩ هـ .
٣ - وفيات الأعيان — ابن خلكان - الجزء الرابع الطبعة الاولى. مصر ١٩٤٨ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
٤ - تاريخ بغداد — الخطيب البغدادي طبعة أولى — الجزء الثالث عشر . الخانجي ١٩٣١م — ١٣٤٩ هـ .
٥ — الكامل - ابن الأثير بولاق .
٦ — تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة — جلال الدين السيوطي — إدارة الطبعة المنيرية . ١٣٥١ هـ .
٧ — كتاب فرق الشيعة تأليف أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي عني بتصحيحه هـ . وليتر — استنبول. مطبعة

الدولة ١٩٣١ النشريات الاسلامية لجمعية المستشرقين الالمانية .
٨ — عقيدة الشيعة: تأليف—دوايتم .رونلدسون. تعريب ع . م . مكتبة الخانجي ومطبعتها مصر ١٩٣٣
٩ — اعيان الشيعة : تأليف السيد محسن الأمين الحسيني العاملي ج : ١ ط ٢ دمشق سنة ١٩٤٤ م ١٣٦٣ هـ .
١٠ — تعريف الشيعة : السيد عبد الرزاق الحسيني ط : ١ مطبعة العرفان صيدا ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م
١١ — دائرة المعارف الاسلامية
١٢ — دائرة المعارف : محمد فريد وجدي م : ٩ مادة مهيار
١٣ دائرة معارف البستاني مادة ديلم .
١٤ — تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان.ج:٢ مطبعة الهلال سنة ١٩١٢
١٥ — ضحى الاسلام : أحمد أمين : ج : ٢ طبعة ٣ القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م
١٦ — تاريخ الشعوب الاسلامية — بروكلمن — دار العلم للملايين بيروت
١٧ — تاريخ الآداب العربية . بروكلمن . S I.210
١٨ — مهيار الديلمي وشعره ، علي علي القلال ، طبعة دار الفكر العربي بمصر سنة ١٩٤٨
١٩ — تاريخ الفكر العربي - اسماعيل مظهر .
٢٠ - مهيار الديلمي — بحث ونقد وتحليل اسماعيل حسين—

مطبعة العلوم
٢١ ــ حياة محمد - محمد حسين هيكل ــ القاهرة سنة ١٣٥٤
٢٢ ــ النظم الاسلامية : الدكتور حسن ابراهيم حسن ــ
الطبعة الأولى سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م
٢٣ ــ على هامش الأدب والنقد ــ علي أدهم ــ طبعة دار
الفكر العربي
٢٤ ــ ادباء العرب في الأعصر العباسية : بطرس البستاني
الطبعة الثالثة ــ مكتبة صادر بيروت.

فهرست

	صفحة
مقدمة	٥
عصره	٧
١ — الحالة السياسية	
٢ — الحالة الاجتماعية	
٣ — الحالة الادبية	
حياته	١٧
ديوانه	٣٢
مهيار شاعر الشيعة :	٣٩
١ — تعريف عام	
٢ — مهيار شاعر الشيعة	
مهيار شاعر الشعوبية :	٦٣
١ — تعريف عام	
٢ — مهيار شاعر الشعوبية	
الغزل	٨٦
المديح	٩٩
الرثاء	١١٦
مهيار وفنون الشعر الاخرى	١٣٣
منزلة مهيار	١٤١
مراجع الكتاب	١٤٤

سلسلة

أعلام الفكر العربي

سلسلة جديدة تستقصي اعلام الفكر والادب في تاريخ الامة العربية ، وتعرف بآثارهم ، وتدرس شخصياتهم دراسة تستهدف تقديم زبدة صالحة مما يقتضي ان يثقف به النشء العربي في زماننا ، من معرفة بالعلماء والشعراء والمفكرين والكتاب الذين اسهموا في خلق الحضارة ، بما قدموا من آثار لا تزال حتى اليوم ، موضع بحث الباحثين ودرس الدارسين .

بعض هؤلاء الاعلام سيختار من بين الذين تطلب المناهج الدراسية درسهم وتحليل نماذج مختارة من نتاجهم ، وبعضهم الآخر سيختار من بين الاعلام المغمورين الذين اغفلتهم المناهج وهم مع ذلك يعدون في موكب العقول العربية الكبيرة

وقد عهدت دار الشرق الجديد في بيروت الى اساتذة ذوي خبرة واختصاص في تاليف هذه السلسلة فعسى ان تبلغ بها الى القصد ، وتفي بما يرومه منها القارىء في لبنان وسائر البلاد العربية .

منشورات دار الشرق الجديد